


سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور ميلاد حنا

# المثقف العربي .. والآخر

## بين الرفض .. والقبول واللامبالاه

# اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٥٠]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

# المثقف العربى .. والآخر

## بين الرفض والقبول واللامبالاة
## ثلاث رؤى فى كتاب واحد

- د. ميلاد حنا : نظريـة قبـول الآخر
- محمد صادق الحسينى : نقد النظرية
- الصـادق المهـدى : نداء المهتدين



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

**طه حسين**

# مقدمة

يندر أن يغامر كاتب بأن يربط مؤلفه بتواريخ معينة . فالكِتاب – فى الأغلب الأعم – يعيش سنوات – وربما أحقاب – بينما الأيام والأحداث تتوارى سريعا مع تدفق الزمن .

ذلك أنني عقب عودتي من مهرجان القُرين السادس والذى عقده – فى دولة الكويت – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب (فى الفترة بين ٣٠ أكتوبر – ١٨ نوفمبر ١٩٩٩) وجدت وسائل الإعلام – صحافة وتليفزيون – محلى وعالمي – تشير إلى احتفال رموز وقيادات العالم بسقوط حائط برلين، وحضر هذا الاحتفال – من بقوا على قيد الحياة – من القيادات الفاعلة التى ساهمت فى سقوط هذا الحائط، وكانت المناسبة هى مرور عشر سنوات على هدمه، وفي مقدمة من حضر الاحتفال في برلين الرئيس جورج بوش، والذى كان امتدادا للرئيس ريجان والذى بدأ مشروع (غزو الفضاء)، فقام الاتحاد السوفيتي بمشاريع مماثلة جعلته، يلهث اقتصاديا وفنيا إلى أن تفكك، كما حضر الاجتماع الشخصية المحيرة ميخائيل جورباتشوف، والذى كان آخر رئيس للاتحاد السوفيتي والسكرتير العام للحزب الشيوعى لهذا الاتحاد الذى تفكك كقطع الحجارة عندما تتحلل المادة الأسمنتية الرابطة لها ، وكان مقدم جورباتشوف للحكم بشعبية عالمية منقطعة النظير، عندما أطلق

شعاراته بعبارات روسية صارت مشهورة وقتها فى كل العالم ولا زالت عالقة فى وجدانى وهى جلاسنوست أى الشفافية والمصارحة ثم البروسترويكا وتعنى الهدم بهدف إعادة البناء، وتوقع كثيرون أن ما أطلق من شعارات سيكون مقرونًا بسياسات تحقق هذه الشعارات، إذ بعملية الهدم تتم . ولكن قبل أن يعاد البناء فقد البناء التوازن وتفكك الاتحاد وعادت إلى كيانات مستقلة ، وما تبقى سُمى روسيا الاتحادية أو الكومنولث (وتعنى الثروة المشتركة) وحتى هذا الكيان أصابه التصدع فصار هذا الحدث البسيط وهو هدم حائط برلين وكأنه أكبر زلزال سياسى فى القرن العشرين .

وأدى كل ذلك إلى عالم مختلف يعج بالصراعات الداخلية والحروب الأهلية بين دول متجاورة في مواقع كثيرة من العالم وهو موضوع هذا الكتاب .

وفى هذا الاحتفال بذكرى سقوط حائط برلين، كان ضيف الشرف الثالث والأهم هو المستشار كول، صاحب قرار توحيد ألمانيا الغربية مع الشرقية وجنى ثمار ما قام به (بخبث أو ذكاء) جورج بوش، وكل أجهزته الظاهرة والخفية وما قام به بسذاجة أو سوء حظ ميخائيل جورباتشوف الذى بزغ مثل الشهب البراقة عبر الثمانينات ثم هوى سريعا مثل الشهب عندما تحترق وهى تدخل الغلاف الأرضى .

فسقوط حائط برلين عام ١٩٨٩ كان إذن نقطة تحول فى النصف الثانى من القرن العشرين، فقد انتهت الحرب الباردة، وبدأ حفل إلباس

الولايات المتحدة الأمريكية عبـاءة القطب الأول والرئيسـى فـى سياسـات العالم وتبع ذلك ظهور حواريين يحملون لقب المفكرين والمبدعين ينظـرون ويدعون لمفاهيم جديدة تبرر كراهية الآخر بإثارة عـداوات قديمـة وجـروح تاريخية كانت قد اندملت منذ قرون .

ومن عجب أن يكون لبعض منهم تعليقاته على واقعـة سـقوط برلـين . فقال أهمهم فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعروف : «انتهى التاريخ ولم يعـد أمـام الإنسـان سـوى أن يضجـر .. لأن لا أفـق أمامـه . إلا الديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية . فكل نظـام آخـر مصيره الانهيار» .

وقال آخـر : «لقد سقط جـدار ، فتوحـدت مدينـة توطئـه لأن يعـاد شطرى ألمانيـا مرة أخـرى بعـد مـا يزيـد علـى ٤٠ عامـا ، ممـا مـهد لأن تلعب ألمانيا دورا أكـبر فـى توحيـد أوروبـا» وكـان لسـقوط حـائط برلـين تداعيات أخرى كثيرة نقلت العالم كله إلى مرحلة جديدة أسموها بالنظـام العالمى الجديد ولكن الجديد فيه أنه مملوء بالآلام والدم من خلال نزعات الكراهية ، حتى تصورنـا أن الحـرب البـاردة كـانت غطـاء وهميـا ، فلمـا انقشع الغطاء ظهرت الثعابين والأفـاعى الكامنـة ومعـها انفتحـت جـروح قديمة تثير معها كراهية الآخـر ، بسـبب اختـلاف العـرق أى السـلالة أو الدين أو المذهب وهى أمـور كنـا واهمـين عندمـا تصورنـا أن الصـراع بـين الشيوعية والرأسمالية قد أخفى أو أنهى الصراعات المختلفة السـابقة لهـا ، فظهرت تواريخ الحروب الصليبية ، وغزو العرب لأسبانيا ثم اسـتردادها .

وظهر تاريخ التتار والعثمانيين وسقوط القسطنطينية وفينا وكلها تواريخ قديمة سجلتها كتب صفراء لتدنس قلوب بيضاء.!

ثم تصادف فى ذات يوم الاحتفال بسقوط حائط برلين ومرور عشر سنوات على هذا الحدث الجلل الذى أدى إلى خلل، أن نشرت صحيفة «الحياة اللندنية» صباح الاثنين ٨ نوفمبر عام ١٩٩٩ خبر زيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثانى - بابا روما - مدينة بتليسى عاصمة جمهورية جورجيا حيث رئيس الجمهورية هو إدوارد شيفر نادزه، وكلاهما من الرؤوس التى خططت - على نار هادئة - شكل النظام العالمى الجديد الذى نعيشه، ومن المفارقات أن قيادات الكنيسة الأرثوزكسية فى جورجيا أصبحت مناهضة للزيارة، فقد نظم بعض كهنة هذه الكنيسة صلاة قبل وصول بابا الفاتيكان للاحتجاج على مشروع القداس الاحتفالى الذى سيقيمه البابا بمشاركة الكاثوليكون إيليا فى أحد ساحات وسط تبليسى وقال الأب الكسندر بولكفازده : «أننا هنا لحماية البلاد من الخطر الكاثوليكية» .

* * *

وإذا كانت هذه هى مقدمة أو استهلال لمقدمة هذا الكتاب والظرف اللحظى لنشره، فإن محتوى الكتاب هو أحد ثمار الندوة الثقافية لمهرجان القرين بالكويت كما ذكر سابقا إذ كان الموضوع الكلى للندوة هو «الثقافة وقضايا الحياة العربية المعاصرة» حيث قسم إلى عدة محاور، كان لكل محور ورقة رئيسية قدمها باحث عربى معروف ثم مع كل ورقة كان تعقيب أو تعليق أو نقد مقدم كتابه من باحث عربى آخر.

في هذا الإطار الكلى ، كُلفت بأن أعد دراسة حول قضية المثقف العربى والآخر: قبول أم رفض أم لا مبالاة؟ وجاء حجم الدراسة أكبرمن المعتاد حيث قسمت الورقة إلى قسمين : الأول يقدم ما يمكن أن يطلق عليه عبارة «نظرة قبول الآخر» وقد أطلقت عليها توصيف أنها مقبولة أى مستساغة ويمكن أن يقتنع بها أى إنسان منصف غير متعصب مسبقا، وهذا هو سر أن قبلها الناس فى إطار عام ١٩٩٩، ولكننى أتمنى أن يزداد اقتناع الناس بها خلال عام ٢٠٠٠ فقد أعلنت اليونسكو أنه سيكون عام الحوار بين الحضارات .

غير أن الواقع المعاش يؤكد أن لكل منا كراهيته لآخر، ليس كأفراد ولكن كجماعات، وهى ظاهرة إنسانية واسعة الانتشار ولذا حاولنا أن نفسر لماذا يكره الناس بعضهم بعضها ثم نستطرد لنشرح أن لكل مجموعة بشرية «خصوصيتها الثقافية»، ويتم تشكيل وجدانها الجماعى من خلال آليات هى (الأسمنت) الثقافى وهو توجه إيجابى لا بأس به، ولكن الأزمة تبدأ عندما تبث (الكراهية) كجزء من استثارة الجماعة لزيادة تماسكها الداخلى وهنا مكمن الخطر وبداية لتداعيات قد توصل إلى حرب أهلية كما كان فى لبنان وكما لا زال قائما فى السودان .

أما الجزء الثانى من الورقة فهو فحص قضية (الآخر) بالنسبة للمثقف العربى، وهى تصنيفات كثيرة، توصلنا لأنه من الممكن بل من الواجب أن يكون له قبول فى حالات، كما يبرر الواقع أن هناك آخر يكون مرفوض، كما أن هناك آخر لا علاقة به ومن ثم حالة (اللامبالاة) . غير أن كل هذه الحالات أى الرفض والقبول واللامبالاة فى حالة حركة مستمرة وتتغير بتغير الظروف السياسية والمجتمعية والإقليمية والعالمية .

ثم يجيء ما هو أهم من الورقة المقدمة منى، هو تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسينى، ولم أره - وحتى لم أر تعقيبه - إلا عندما ذهبت بالفعل إلى الكويت، ثم حضرت جلسات الندوة ، وإذ بى أسعد أولا بقراءة التعليق الذى كتبه عندما قرأته فى المساء ثم أسعدت بالشخص والإنسان والمفكر عندما رأيته في اليوم التالى، فعرفت أنه من أصل عراقي ومن ثم يتحدث العربية مثلنا تماما وقد ولد فى النجف وارتبط بالفكر الشيعى منذ نشأته ثم جدت ظروف جعلته يهاجر إلى إيران وظل يرتقى فى السلم الإعلامى الثقافى الشيعى كجزء من الثورة الإسلامية، حتى صار من لحمتها المستنيرة كمستشار لشئون الإعلام لوزير الثقافة الإيرانى وهو فى ذات الوقت أى وزير الثقافة الذى حل مكان الرئيس خاتمى هو الناطق الرسمى باسم حكومة الرئيس محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومن ثم فإن لتعقيبه نكهة ومذاقا خاصا بل وأهمية فكرية، لأنه نقد موضوعى من رجل ومثقف له رؤية ومدعم بكل النصوص والتراث الذى يؤيد وينقد نظرية قبول الآخر.

فى هذا الإطار وجدت من المناسب أن أضيف إلى مجمل الكتاب دراسة كان قد قدمها لى الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدى وهو شخصية ثقافية وفكرية مرموقة، ليس لأنه كان رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦، وليس لأنه رئيس حزب الأمة السودانى، ولكن لأنه يحمل لقب (صاحب العهد مع أنصار الله) وأنصار الله هم رجال حزب الأنصار أى المهدية ، ومن ثم فإن لرؤيته اعتبارا خاصا لذوى الرؤى فى الفكر والثقافة الإسلامية . وسيكون لنشر هذا النداء فى الظروف الحالية التى تمر بها السودان أهمية خاصة، لأنها تعنى انتقال الفكر المسيطر من توجه أصولى

للآخر إلى توجه آخر قابل للأخر ومن ثم فقد يكون بداية رائعة لنداء سحرى لحل مشاكل السودان المعقدة، وقد ينقذها من التفكك والانقسام أو التقسيم فى لحظة أخيرة حاسمة ..!

* * *

نشر المفكر الأمريكى صموئيل هانتجتون رؤيته أو نظريته التى تتنبأ أن الحقبة الحالية والمعاصرة والقادمة هى مرحلة (صدام الحضارات) ففى صفحة ٣٤٣ من الترجمة العربية جاء ما نصه : «فى عام ١٩٩١ كان بارن بوران يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خط المواجهة . هذا تطور له علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام» .

لقد نشرت النظرية فى أول الأمر فى مجلة فورن أفيرز فى صيف عام ١٩٩٣ ثم صدرت فى شكل مجلد تفصيلى عام ١٩٩٦ وترجم إلى العربية عام ١٩٩٨ بعنوان (صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى)، أقول، منذ أن قرأت هذه النظرية – ربما خلال عام ١٩٩٤ – عكفت على كتابة وجهة نظر بديلة نشرت عام ١٩٩٨ فى كتاب باسم (قبول الآخر) وقد يجد الكتاب قبولا واسعا بين المصريين، مما ساعد على دعم التآخى الوطنى الداخلى، لذلك فكرت فى أن أعالج القضية الأكبر وهى الكراهية المتبادلة بين الغرب والإسلام والتى تبدو تجلياتها واضحة فى أحداث متتالية وفي مواقع كثيرة، لذلك رحبت بنشر هذا الكتاب فى سلسلة اقرأ بهذه المنظومة التى تتكون من ثلاث دراسات – كما سبق الإشارة – لعل فى ذلك ما يخدم نزع فتيل الكراهية بين الغرب والإسلام .

أيها القارئ الكريم

إن الكراهية التي توصل الإنسان إلى القتل والإرهاب تبدأ فكرا، ومن هنا كانت أهمية التوجه الثقافي والحوار بين البشر المنتمين إلى ثقافات وحضارات ورؤى مختلفة، لأن أحدا منا - وكما ذكرت في نظرية قبول الآخر - لم يختار لون بشرته أو ديانته أو مذهبه، وها نحن - كتّاب هذه الأوراق والدراسات المختلفة - قد عبرنا عن بعضا من وجه نظرنا، وستكتشف من خلالها أيها القارئ الكريم - أننا - نحن الثلاثة - لسنا متطابقين في وجهات النظر، ولكننا قابلين لبعضنا البعض، ومن ثم نتحاور ونعرض رؤيتنا أمامكم صريحة شفافة.

لك الحق في أن تختلف مع أي منا أو معنا كلنا ولكن الحوار هو السبيل إلى معرفة الآخر، وفهمه، لعلنا بكل ذلك نقلل من معاناة البشر في الحروب الأهلية، فيحيا جيل قادم قابل للآخر بالفطرة، فيكون هذا الجيل القادم بالفعل هو بداية لغد أكثر إشراقا وهو الشعار الذي أكتب تحته كل مقالاتي وكتبي.

وعلى الله قصد السبيل

**ميلاد حنا**

القاهرة في ١٢ ديسمبر ١٩٩٩

# الجـــزء الأول

## «قبول الآخر»



د . ميلاد حنا

## نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وتقوضها الانتماءات الموروثة

- قبول الآخر نظرية منطقية يقبلها الإنسان المنصف
- الانتماءات الموروثة والمكتسبة هى سبب تقويض النظرية
- الخصوصيات الثقافية .. مقهورة وغالبا مكبوتة
- تشكيل الوجدان .. قرار سياسى فى حاجة إلى تخطيط
- من ثقافة «التلقين» إلى ثقافة «الحوار»
- المثقف العربى أنواع واشكال ومجموعات

# «قبول الآخر»

# نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وتقوضها الانتماءات الموروثة

## ١ - «قبول الآخر» نظرية بديهية منطقية يقبلها الإنسان المنصف

يولد الإنسان - أى إنسان - دون رغبة من ذاته أو تخطيط بما سيؤول إليه حاله كما أنه لا يتنبأ بمسار حياته أو رحيله، وعلى سبيل المثال:

■ يولد المرء أسمر أو أبيض أو أسود، أى يكون لون بشرته معبرا عن سلالته أو عرقه مما يعنى ضمنيا أن الانتماء «الإثنى» ليس للإنسان فضل فيه، ورغم هذه البديهية فإن الصراع بين الأعراق والسلالات قضية تعيشها البشرية منذ آلاف السنين، بدأت بعصور «الرق» إلى عصر الفاشية الأوروبى فى الثلاثينيات من القرن العشرين وصولا إلى عصر «التطهير العرقى» فى نهاية القرن.

■ قد يولد الطفل ذكرًا أو أنثى، وخلال رحلة الحياة تكتشف المرأة أنها الجنس «الأضعف»، فتتجمع فى حركات «تحرير النساء» لأن الرجل قد اكتسب حقوقًا بسبب ما تصوره قوته البدنية والعقلية، وتناضل المرأة منذ أحقاب لكى تحصل على حقوق متساوية مع احتفاظها بميزات

الإعفاء من الأعمال الشاقة بما فيها عدم المشاركة فى الجندية ومن ثم الحروب.

■ قد يولد المرء فى وطن يعطيه مميزات، ويصبح - على سبيل المثال - حاملاً لجواز سفر يفتح له الأبواب الموصدة لمعظم دول العالم، وقد يولد آخر فى معسكر لاجئين، فلا يحصل على جواز سفر أصلاً، ويمنح «تصريح مرور» من الأمم المتحدة، لذلك يشعر الأول أن من حقه التعالى على الآخرين، ويكافح الثانى ليحصل على أى جنسية.

■ حتى اسم الإنسان - وقد صار جزءًا من ذاته مع الزمن - لم يختره بل وجد اسمه مقرونا به وعليه أن يقبله - قد يكون الاسم خفيفا لطيفا يسهل حفظه. فيكون ممهدا له طريق التعرف على الآخر أو مركبا لا يجد قبولا لدى سامعه. فيلمس امتعاضا مخفيا لمن أسمه لأول مرة.

**وهذه مجرد أمثلة قليلة لعشرات من الأمور التى ليس للإنسان فضل فى التمتع بها أو يتحمل القهر بسببها.**

إن قبول الإنسان لذاته هو الخطوة الأولى لقبوله للآخرين، والإنسان الرافض لذاته، من الطبيعى أن يفتش عن أسباب تبرر له كراهيته للآخرين دون أن يعى أن الأمر فى حاجة لأن يراجع ذاته ويصحح نفسه من الداخل .

ويطول الشرح لو عددنا التباينات بين البشر فى مجال الفقر أو الذكاء أو الحقبة الزمنية التى يعيشها، أو الدين الذى ينتمى إليه وغيرها كثير وليس له خيار فى حظ أو تعثر في أن ولد هكذا.

ومن هذا المنطق فالأصل أن يكون الإنسان قابلا للآخر ولكن الواقع المعاش هو أن الإنسان يجد نفسه متخذًا لموقف ما، مع أو ضد الآخر، لأسباب يبدو وكأنه مَسوق إليها بواسطة قوى ثقافية أو مفاهيم يصنعها المجتمع المحلى أو الإقليمى أو العالمى، ومن ثم كانت قضية الرفض والقبول فى حاجة إلى تحليل وفهم بالنسبة للإنسان - أى إنسان - وبعدها يمكن أن يعالج الأمر بالنسبة للمثقف بشكل عام ثم المثقف العربى بوجه الخصوص وهو موضوع هذه الورقة.

## ٢ - الانتماءات الموروثة والمكتسبة هى سبب تقويض النظرية

الإنسان كائن مجتمعي، رافض لأن يعيش فى عزلة بمفرده، وقديما قالوا: «جنة من غير ناس ما تنداس»، فالمرء بذويه، والرجل بعشيرته والمثقف بمريديه، ومن ثم تتكون لدى الإنسان انتماءات متعددة خلال رحلة الحياة، فيكون الانتماء - أول الأمر - للأسرة والقبيلة أو المحافظة ثم الدولة، أى للوطن الذى ولد فيه دون أن يختاره ثم ينتمى إلى دين وربما لمذهب داخل الدين، وكل هذه الانتماءات أمثلة لانتماءات «موروثة»، وهى التى تكون «الأسمنت» أو المواد اللاصقة التى تربط حبيبات منفصلة (وهى البشر) لتكون منها كيانا متماسكا، فيتحول من حبيبات رمل أو حصي أو زلط متفرقة إلى كتلة من الخرسانة المتماسكة وأستأذن القارئ فى هذا التشبيه بحكم عملى فى مجال الهندسة الإنشائية لما يزيد على نصف قرن.

وخلال رحلة الحياة تتكون انتماءات أخرى «مكتسبة»، مثل الانتماء إلى مهنة تؤهل لعضوية نقابة أو جماعة ثم إلى أيديولوجية تؤهله للانتماء

إلى حزب سياسى، وتتمدد الانتمـاءات وتتسـع لتغطـى أنشـطة وهوايـات كالموسيقى والمسرح وما إليها وكذلك الرياضة على أنواعها فيشبع الإنسـان ميوله الذهنية أو هواياته مع أقرانه المهتمين بذات اللون من أوجه النشـاط الإنسانى فى مجال الفنون والآداب والسياسة والديـن، ويتمثـل ذلـك فـى تكوين الروابط والجمعيات الأهلية التطوعية والنقابات والأحزاب السياسية وما إليها.

وقد يكون الانتماء إلى طبقة اجتماعية أو اقتصادية فيعطيه ذلك عضوية نادى رجال الأعمال، بتفوقه على «الآخر»، الأقل ثراء.

وهكذا فإن أى مجتمع إنسانى داخل قطر أو دولة أو اتحـاد بـين دول يتكون من مجموعات أصغر، كل منها يلتف حـول انتمـاء معـين: انتمـاء جغرافى، ويسمونه انتماء «جهويا»، فى إقليـم أو ولايـة (شمـالا وجنوبـا كما فى حالة السودان)، أو انتماء عرقى يفرق بين سلالات لها وجود فى إقليم واحد، نتيجة هجرات حديثة أو تاريخية، فتتكـون جماعـات لكـل منها خصوصيتها الثقافية فى اللغة أو العرق (كمـا فـى حالـة البربر فـى شمال أفريقيا أو الأكراد فى تركيا والعراق)، أو على أساس دينى (كما فى حالة الموارنة والشيعة والسنة فى لبنان)، أو على أساس مذهبى (كما فـى حالة الكاثوليك في إيرلندا أو الشيعة في العراق وغيرها كثير).

وفي معظم هذه الحالات التى تعم العالم العربى - كما تعم كـل العالم بدرجـة أو بـأخرى - يكـون لكـل منـها ظروفـها التاريخيـة التـى أدت أو تـؤدى إلى كراهيـة «الآخـر» ورفضـه، وقـد تكـون الدولـة أو الإقليـم متحضرا، ومر بأحداث تاريخية ولدت «الانصهار» أو التآخى أو المعايشة

وكلها أنواع من قبول «الآخر» أو قبول «الآخرين»، فتعيش فى وئام مؤقت، كما فى حالات الجاليات العربية فى أوروبا وأمريكا اللاتينية فتحصل على الجنسية، ولكن الانصهار التام موضع خلاف يتحسن أو يسوء من جيل إلى آخر وفق المتغيرات الثقافية والسياسية والنضالية.

## ٣ - الخصوصيات الثقافية مقهورة وغالبا مكبوتة

فى إطار الوطن الواحد، توجد - فى الأغلب الأعم - تجمعات بشرية (قد تسمى «أقليات» عرقية أو دينية أو مذهبية أو ثقافية) تتوافر لها خصوصية ثقافية ممثلة فى لغة أو دين أو تقاليد موروثة، أى ممارسات ثقافية تجعل لهذه الجماعة أو تلك، شيئا من الاختلاف أو التمايز كما ذكرنا سابقا، وقد يتحول «الاختلاف» Difference إلى «خلاف» Contradiction وقد يتزايد الاختلاف فيولد صداما Conflict، ونتيجة لذلك قد يتحول الصدام إلى صراع Struggle.

وعلى النقيض من ذلك، فإنه إذا كان هناك مناخ ديمقراطى ثقافى قابل لوجود اختلاف، فى إطار منافسه شفافة علنية، وفى إطار أصول مرعية بين أيديولوجيات، أى بين أحزاب سياسية، تكون مقرونة عادة بممارسة تداول السلطة بشكل هادئ وسلمى، فإن «الخصوصيات الثقافية» تصبح مصدر «ثراء» مجتمعى، لأن هذا «القبول بالآخر» يولد «أرضية مشتركة» بين قاطنى هذه الدولة فيتولد الإحساس «بالمواطنة» التى تدعمها قواعد دستورية ومناخ ثقافى عام، ومن ثم فإنه فى الدول التى تمارس الديمقراطية لقرون طويلة، ويكون أساس التعامل فيها هو

الفرص المتكافئة في الاحتياجات الأساسية للبشر، لا يشعر الزائر بالخصوصيات الثقافية للمجموعات المسماة بالأقليات أو بالآخر، بل ويصل الأمر إلى وجود تشريعات تضمن حقوق المواطنين الذين كانوا «مهمشين» في الماضي. وعلى سبيل المثال فإن القوانين في الولايات المتحدة الأمريكية، تلزم الجامعات بضرورة قبول نسبة معينة من السود والنساء وبعض الأقليات في معظم ولاياتها.

أما في بعض دول العالم النامي، فإن المرأة وبعض الأقليات تمنع من ممارسة حقوق تبدو مستقرة في دول أخرى أكثر حضارة.

وقد يتوهم البعض أن طرح قضية «الخصوصيات الثقافية» يعيق «الانصهار الوطني»، من منطلق أنه يكرس الفرقة، أي يؤكد «الاختلاف»، ولكن النظرة المتعمقة تؤكد أن الاعتراف بالخصوصيات الثقافية يسعد ويريح المجتمعات البشرية التي تشعر بالاغتراب كأقلية في وسط «أكثرية» فتكون «الوحدة من خلال التنوع» ويتقوى المجتمع لأنه يوسع «الأرضية المشتركة» ويؤكد الحقوق المتكافئة، لأنه يكاد لا يوجد شعب أو دولة في العالم الآن من عرق وسلالة واحدة وينتمي شعبها كله إلى دين ومذهب واحد. وربما كانت السويد، منذ نحو ربع قرن، نموذجا فريدا للتجانس، ولكن الحروب المحلية في البلقان واللجوء السياسي من يوغسلافيا وتركيا قد كونت واقعا جديدا يحاولون معه خلق تجانس من نوع جديد.

## ٤ - تشكيل الوجدان قرار سياسى في حاجة إلى تخطيط

يتم تشكيل الوجدان والمفاهيم فى الحقبة الحالية من خلال آليات تتحكم فيها الدول والحكومات فى إطار موروثات سادت فى أحقاب أو قرون سابقة. ولأن ثورة الاتصالات على أنواعها، أمور حديثة على المجتمع الإنسانى، ولا يتعدى انتشارها الواسع الحالى أكثر من القرن العشرين، لذلك عاشت المجتمعات القديمة فى شكل دول أو قبائل أو كيانات معزولة، ولكنها هادئة ومستقرة، لأنها قد كونت داخلها مجمل العادات والقيم والمفاهيم المتفق عليها نتيجة موروثات جماعية بعضها قبلى أو دينى أو عرقى، وربما كان الهدوء الظاهرى نتيجة قهر هادئ مستمر، ولذلك ظهرت صراعات كان بعضها عنيفا، عندما توافرت الاتصالات والاحتكاكات بين مجتمعات أو حضارات كانت تتمتع بقدر أكبر من الهدوء المبنى على الخمول.

وشاهد القرن العشرون كذلك حركات تحرر وطنى لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل، وتكونت عشرات الدول المستقلة حديثا بحدود ونظم مختلفة، إذ حصلت على الاستقلال بعد صراعات أو نضالات طويلة أو قصيرة وتكونت لها حكومات ونظم ليست بالضرورة مبنية على دساتير ديمقراطية عريقة، ولكنها نتيجة توازنات مجتمعية نضجت خلال سنوات الاستقلال كما فى حالة مصر، وبعدها تحاول الدولة الوليدة أن تفرض من خلال سيطرتها على نظم التعليم والإعلام ودور العبادة مفاهيمها ورؤيتها التى تحقق وتكرس النظم الحاكمة وتتفق مع قيم ومفاهيم المجموعات البشرية الأكثر عددا أو نفوذا فى المجتمع.

فى هذا المناخ، تظهر تكتلات بشرية صغيرة داخل هذا الكيان الجديد على أسس عرقية أو دينية مغايرة لانتماء الأكثرية، وتشعر هذه الأقليات بحقها فى الاحتفاظ بخصوصيتها الثقافية لأن المناخ العام للقيم والمفاهيم التى ترضى الأغلبية لا تلبى بالضرورة احتياجاتها الثقافية. وفى بعض الأحيان يتفق على إعطاء هذه المجموعات حق تأكيد وجودها بالمحافظة على خصوصيتها الثقافية، فيتولد مناخ الرضا من خلال قبول «الآخر»، وينمو المجتمع دون صدام، بل تتحول الخصوصيات الثقافية إلى ثراء ينمو مع الزمن ويدعم الديمقراطية لأنها - أى الديمقراطية - فى التحليل النهائى أحد أنماط «قبول الآخر» والحوار أى التنافس من خلال أيديولوجيات مختلفة.

وفى أحيان أخرى - نشاهدها ونعرفها - يتولد مناخ لدى الأكثرية بأن إعطاء الأقليات حقوقا ثقافية «يشرخ» المجتمع ويفكك عرى «الوحدة الوطنية»، فتتجمع الأقلية جغرافيا فى منطقة بذاتها، ومن هنا جاءت عبارة «الجيتو» وتتقوقع الأقلية العرقية أو الدينية، وتلجأ إلى السلبية، محافظة على سلامتها فى الكيان الكبير، وقد يزداد الإحساس بالاغتراب وتتحول السلبية إلى صراع ساخن.

وهكذا يتضح أن قضية تشكيل وصياغة الوجدان والقيم والمفاهيم فى المجتمعات المستقلة حديثا فى حاجة إلى دراسة وتخطيط، ولا ينبغى أن تعالج كقضية محسومة تتوافق مع المزاج العام للنخبة الحاكمة أو بهدف ترضية الأغلبية الفاعلة، خصوصا وأن معظم حكومات الدول النامية مسيطرة على نظم ومناهج التعليم، ومحتكرة لوسائل الإعلام من إذاعة

وتليفزيون وما إليها. ولقد شاهدنا في بعض الدول وفى المراحل الأولى من الاستقلال الوطنى وحيث توجد أغلبية من الأمية والتخلف، أن بث الكراهية من خلال وسائل الإعلام يكون هو السبيل الأسهل للمحافظة على الاستقرار السياسى الظاهرى للمجتمع. فأحيانا يكون «رفض الآخر» هو الأسمنت المؤقت المصطنع ليزيد التماسك الداخلى، ثم مبررا لتأجيل حدود مساحة الحريات والديمقراطية بسبب وجود عدو وهمى خارجي أو داخلي.

**إن الأمان والاستقرار الحقيقي والدائم يكمنان في توفير ثقافة قبول الآخر، لأن الإنسان عدو ما يجهل. وكلما كان المواطن العادى ملما بعادات وتقاليد الآخر، فإن مناخ التآلف والتآخى ينمو شيئا فشيئا، وتنمو الديمقراطية بشكل هادئ وطبيعي.**

## ٥ – من ثقافة «التلقين» إلى ثقافة «الحوار»

وإذا انتقلنا من هذا التعميم الفلسفي والفكرى – وكمقدمة عامة طويلة نسبيا لهذا الجزء من الدراسة – إلى صلب القضية التى تخصنا فى العالم العربى، نجد أننا مازلنا نعيش متأثرين بقرون من التراث مملوءة بثقافة النص والتلقين، فكل المذاهب الدينية – على أنواعها – يقوم على أساس الرجوع إلى نص، ومن ثم فهو ملزم للفكر والتسلسل المنطقى، ونتيجة ذلك فإن مؤسساتنا التعليمية والثقافية – الحكومية والفقهية – تقوم على مبدأ «التلقين». ففى مدارسنا مازلنا نحتفظ بحصة المحفوظات، أى حفظ نصوص من الشعر أو النثر أو غيرها عن ظهر قلب، وغالبا ما يكون ذلك

مقرونا بالشرح وتفسير المعانى، أى بنوع من الاجتهاد وإذا لم يتيسر ذلك فيكتفى بحفظ النص كما هو، وعندما ندعو الطفل إلى قراءة ومراجعة ما حصله من مادة علمية فى المدرسة فإننا نسمى هذه العملية بـ «المذاكرة»، أى دعم «الذاكرة» وليس تنشيط عملية التحليل العقلى بآليات منطقية تجعل الذهن قادرا على الإبداع بتنمية الطاقات الخلاقة.

وثقافة «التلقين» لا تقتصر على المدرسة، فهى تبدأ من الأسرة فى سنوات عمر الطفل الأولى وتمتد إلى أجهزة الإعلام والصحافة، وكلها أو فى مجموعها تكون مناخا ثقافيا لن يتغير من تلقاء ذاته؛ يمكن أن يخطط لتغييره إذا جاء قرار سياسى علوى يوفر آليات الحوار، وعلى سبيل المثال، تعمم «المناظرات» المدرسية ليعى الطالب أن لمعظم قضايا الحياة أكثر من وجهة نظر، وأن المشاكل المعاصرة لم يعد حلها مقصورا على حل أو قرار واحد.

وتدريجيا يصبح الحوار متعة لاكتشاف أن الأمور التى كان مقطوعا بها، أو محسومة فى مقولة أو مثل شعبى متوارث فى رأى متفق عليه، قد صارت متعددة الأوجه، فتتسع المدارك العقلية، وتتدافع الرغبة فى القراءة والاستزادة من المعرفة، وإذ بالأدوات والمفاتيح التى يوفرها التقدم العقلى العلمى من كمبيوتر وإنترنت وغيرها، تقدم المعرفة والمعلومات فيسود التنوير ومعه قبول «الرأى الآخر» ومن ثم الإنسان الآخر، وهذه العملية «Process» تأخذ وقتا ومسارا طويلا متعرجا ينمو مع الأيام ومعها يختفى جيل قديم، كانت رؤيته أحادية قاطعة، ويتقدم الصفوف جيل

أحدث لديه أدوات المعرفة ويعيش عصر المعلوماتية، وغالبا ما يكون هذا الأمر مزيجا من معلومات علمية فيزيائية بحتة أو تطبيقية في مجالات الهندسة والطب والزراعة، تتناغم مع علوم الإنسانيات في مجال الفلسفة والتاريخ والحضارات والاجتماع وما إليها.

## ٦ - المثقف العربى أنواع وأشكال ومجموعات

لسنا أمام مثقف عربي واحد، فهناك أنماط من المثقف العربى، تتغير وفق كل من الموقع الجغرافي والفكرى الأيديولوجي في الأماكن والدول والأقطار المختلفة، فالمثقف العربى في مصر غيره في السعودية، غيره في المغرب العربى، غيره في بلاد الشام، وأتصور أن التباين والأرضيات المشتركة لهذه الثقافات ستكون بين ثنايا هذه الندوة في مجملها لأنها تناقش كل من :

( أ ) إشكالية البنية الثقافية العربية

(ب) القومى والقطرى في الثقافة العربية المعاصرة

أما فيما يتعلق بالتوجه الفكرى أو الأيديولوجي، فالمشاهد أن الأحقاب الماضية - ومنذ الناصرية - قد أفرخت تيارات فكرية متباينة عمت العالم العربى عموما، وربما كانت «حالة مصر» معبرة عن التغيرات التى سادت أجواء المثقف العربى.

خلال الحرب العالمية الثانية، انبهر بعض المثقفين المصريين بأيديولويجة «الماركسية - اللينينية» واستبشروا بها خيرا للخروج من نفق

التخلف، وفى الجانب المقابل كانت حركة الإخوان المسلمين - منذ عام ١٩٢٨ - داعية لنهضة وصحوة تعيد «الخلافة الإسلامية» كسبيل للرد على الاستعمار والحضارة الغربية. ومن ظهور شخصية عبد الناصر تبلورت أفكار حزب البعث العربى فى تيار «الناصرية» التى التفت حولها الجماهير العربية كأيديولوجية - أو حوله (ممثلا فى شخص عبد الناصر) وتحولت إلى فكر «القومية العربية» وتصورنا فى النصف الأول من الستينيات أن فى هذا الفكر سوف يجمع الشعوب العربية فى أيديولوجية تناسب ثقافتنا وتناطح أعداءنا ولا تتعارض مع العصر.

أدرك الغرب ذلك - وفى طريقه لأن يحسم معركته فى الحرب الباردة - خطط لأن يخوض معركة عسكرية - وبالتنسيق والتحريض من دولة إسرائيل - فكانت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ضربة قاصمة لأيديولوجية «القومية العربية» وبعدها لم تعد كافية لإبهار وإجماع المثقف العربى، فكان الإفراز الطبيعى للأصولية الدينية والتى نمت من وقتها - وحتى الآن - ثم زاد نفوذها عبر التسعينيات ردا على الضياع الذى ساد مناطق كثيرة مع زيادة نفوذ «أيديولوجية» العولمة الغربية. ومن هنا كانت أهمية عرض ورقة نداء المهتدين الذى قدم فيها السيد الصادق المهدى باعتباره «حامل العهد لأنصار الله (المهتدين) » رؤية فى توافق الفكر الدينى مع قضايا العصر وهى المكون الثالث الأهم من هذا الكتاب .

إن التنوع ثراء للتيارات الفكرية، ولكن الإشكالية والمرض يكمنان فى «التخندق الثقافى» - إن جاز التعبير - لكل فريق أو تيار أو جماعة فى مواجهة أى تيار أو فريق «آخر» ويبدو ذلك بين الحين والآخر فى حالة

«التشنج» التـي تتكـرر فـي نـدوات المثقفين العرب حيـث يعم الصياح (وأحياناً الصراخ) وتبادل الاتـهامات، فيختفـي حـوار «العقـلاء». وربمـا كانت هذه الأمور هي «أحد» الأسباب لطرح واختيار محاور النقاش لهـذه الندوة المهمة. فكل ذلك يعكس أن ثقافة وفكر «قبول الآخر» لم يتعمقا في وجدان وممارسات ونقاش حتى كبار المثقفين والمفكرين.

قالت الأمثال من قديم: «أنا وأخي على ابن عمـي.. وأنـا وابـن عمـي على الغريب»، ولذا فإن الإحساس بالآخر يختلـف مـن موقـع إلى آخـر، وتتغير درجات القرب أو البعد عن الآخر، حسب الجغرافيـا، أى المكـان أو المستوى الثقافي والحضـارى فبالنسـبة للمواطـن الكويتـي «الآخـر» قـد يكون كل من يقطن الكويت، ولكن لا يحمل الجـذور الكويتيـة القبليـة أو من هو خارج دولـة الكويـت حتـى إن كـان مـن دول الخليـج، وبالنسـبة لمواطنـي دول الخليـج «الآخـر» هـو مـن يسـكن خـارج مجموعـة مجلـس التعاون الخليجي، وبالنسبة لمن يسكن الوطـن العربـي «الآخـر» هـو غـير العربي.. كذلك فإن التيارات الفكرية قد تكون متقاربة أو متكافئة، فالتيار الناصرى كان أقرب في مرحلة الستينات إلى التيار الماركسي من التيـارين الليبرالى أو الإسلامى على أنواعهما، التيارات الإسلامية تشـعر بالتقـارب فـي مواجهـة التيـارات الليبراليـة والناصريـة والماركسية، ولذلـك أطلقـوا عليها - في مجملها - عبارة «العلمانيين»، ثم حاولوا أن يفسروها بأنـهم الخارجون على الأديان، أى الملحدون. وكان نشر هذا المفـهوم، يرمـى إلى تعميق رفض الآخر توطئة إلى نفيه. ومن هنا ننتقل إلى الجزء الثاني لنقـدم المثقف العربي والآخرون.

* * *

# الجزء الثانى

# المثقف العربى .. والآخرون

١ - آخرون داخل كل وطن على حدة :

■ حالة لبنان

■ حالة السودان

٢ - « آخرون » داخل أقطار العالم العربى ، وما هم بـ«آخرين» :

■ الأقليات المسيحية فى الوطن العربى

■ البربر فى دول شمال أفريقيا العربية

■ الأكراد بالمشرق العربى

■ اليهودى والإسرائيلى

٣ - « آخرون » على مستوى الأقطار العربية الأخرى

٤ - « الآخر » خارج العالمين العربى والإسلامى :

■ الآخر فى الحضارات الغربية

■ الآخر فى الشرق الأقصى

■ حضارات لها علاقات خاملة مع العالم العربى

٥ - الخلاصة

٦ - كلمة الختام

# المثقف العربى . . . والآخرون

## تمهيد

من غير الممكن إعطاء وصفة «سحرية» للمثقف العربى - أو حتى لغير العربى - يستخدمها فى علاقته مع «الآخر»، فنحن نعيش فى مرحلة «مفصلية» قلقة من تاريخ العالم، ومنذ تفكك الاتحاد السوفييتى، وزيادة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية كقطب رئيسى فى العالم، ومنذ أن دخلت عالم الثقافة عبارات: العولمة، وآليات السوق، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وثورة المعلومات وغيرها، والعالم العربى يعيش كل هذه المتغيرات الهائلة، فضلا عن آثار حروب الخليج وتداعياتها، ومرحلة المخاض والتعثر حول «التسوية النهائية» المتوقعة للصراع العربى - الإسرائيلى، ومحاولة كل طرف الحصول على مكاسب تعطيه موقعا متميزا وإمكانية التفوق والسيادة على المنطقة أكثر من الطرف الآخر، نقول فى إطار كل هذا سيجد المثقف العربى أنواعا مختلفة من «الآخرين»، ربما يكون لكل منها ملامح مختلفة تضئ الطريق، أقسمها إلى مجموعات أربع على النحو التالى:

### أولا : « آخرون » داخل كل وطن على حدة :

لكل قطر عربى خصوصيته السياسية والثقافية والمجتمعية، وينعكس ذلك على مناخ قبول أو رفض الآخر، ويصعب فى مثل هذه الورقة أن

نقدم دراسة أو رؤية لكل قطر عربى، فهذا أمر حساس، ولا يسمح به المناخ العام للوطن العربى حاليًا، وأكتفى بتصنيف الوطن العربى، بالنسبة للقضية التى نحن بصددها، إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالى:

( أ ) نظم أحادية التوجه: حيث تسيطر الدولة أو الحزب أو المؤسسات القابضة على الأمور الثقافية والفكرية، وهذه الدول معروفة بشكل عام بين المثقفين، لا داعى لتسميتها فهذا أمر لا يتفق مع الممارسات الثقافية العربية، وأتعاطف شخصيا مع المثقفين فليس أمام المثقفين المقيمين بشكل دائم فى هذه الأقطار إلا قبول «الآخر» الذى تقبله الدولة، ورفض الآخر الذى ترفضه الدولة، وإلا فلا سبيل سوى الهجرة خارج القطر وأحيانا خارج الوطن العربى كله وأعرف نماذج كثيرة لمثقفين عرب - من هذا النوع - يعيشون فى أوروبا هربا من قهر أوطانهم الرافضة لآخرين وبعض منهم موجودون فى هذه الندوة.

(ب) نظم لديها هامش معقول من الحرية الفكرية : وهنا يكون توافر قناعة المثقفين بقبول المثقف الآخر أمرًا له أهميته، لأن ذلك سوف يسهم فى توسيع مسطح الديمقراطية الحالى شيئًا فشيئًا، وخلق مناخ ثقافى يفتتح حوارًا صحيًا، غالبا ما يؤدى إلى دعم التماسك والوفاق الوطنى، فيكون «الاستقرار على أسس أكثر رسوخًا» من خلال «مؤسسات» تنمو وتتقوى مع الوقت، ويكون المثقفون قد أدوا دورهم التاريخى فى مسيرة التقدم.

(جـ) دول ومجتمعات قد دمرت وقاست من جـراء «رفض ونفى الآخر»: ويوجد بالعالم العربى دول عدة بهذا الوضع، أكتفى بنموذجين صارخين جديرين بالطرح والمناقشة فى مثل هذه الندوات الفكرية الحرة وهما:

## ◻ حالة لبنان:

منذ الاستقلال عام ١٩٤٦، عاشت لبنان وضعًا مجتمعيًا غير متكرر، يحمل داخله تناقضات عدة منها انبهار قطاعات من المجتمع بالحضارة الغربية، وحماس قطاع آخر للانتماء العربى، وقطاعات عدة تشعر بالأمان فى الانتماء الدينى، فجاءت الصياغة السياسية والثقافية غير ممكنة إلا من خلال نظام حكم مبنى على توزيع السلطة بين الطوائف المعتمدة رسميًا، مع هامش واسع من الحريات العامة والشخصية والاقتصادية.

وكان أن تفجرت الحرب الأهلية من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٢، ولم يكن من سبيل إلا العودة إلى النظام الطائفى مرة أخرى، مع توازنات جديدة ولدتها الحرب، وأراه وضعًا قلقًا، لأنه توازن غير مستقر (ليس بسبب توازنات القوى الداخلية)وإنما بموازين سياسية وعسكرية حساسة ودقيقة لدول مجاورة فى المشرق العربى وستتغير فى المستقبل القريب.

واقترح على مثقفيها - وهم من خيرة مثقفى العالم العربى - تبنّى ونشر ثقافة وفكر قبول «الآخر» بما فى ذلك «البديهيات الإنسانية» التى جاءت فى الجزء الأول من هذه الورقة. فالتغيير فى لبنان سيكون من خلال المثقفين أكثر منه عن طريق السياسيين أو العسكريين، فإذا اتفق

المثقفون تدريجيا على صياغة «الأرضية المشتركة» فستختفى تدريجيا الطائفية وتحل محلها مفاهيم المواطنة.

## ◻ حالة السودان المعرض للتفكك :

أكتب هذه الأسطر فى أواخر يوليو عام ١٩٩٩، فى وقت متزامن مع كتابة مقالتين بجريدة «الأهرام» حول «المسألة السودانية»، واحتمالات «تدويلها» من خلال خطة أمريكية ظهرت معالمها بصدور قرار من الكونجرس الأمريكى فى ١٥ يونيو عام ١٩٩٩. ولذا فإننى غير متيقن مما ستؤول إليه الأمور وقت انعقاد هذه الندوة العربية. فالسودان ليس لديه أزمة «آخر» واحدة وإنما «آخرون» عدة(*)، بسبب أن به نحو ٥٠٠ (خمسمائة) تكوين عرقى أو أثنى كما لديه نحو ٥٠ (خمسين) لغة موثقة، ولذا صارت «المسألة السودانية» من أعقد المشاكل فى العالم بسبب تأخر عرض ذهنية «قبول الآخر» والتى كان من الممكن أن تبدأ مع الاستقلال عام ١٩٥٦ والأمل المعقود - إن كان هناك بقية من أمل - على المثقفين السودانيين لصياغة «الهوية السودانية» والأرضية المشتركة فى هذه الغابة من الانتماءات والدماء.

فالمثقفون أقدر من السياسيين على صياغة الأفكار حول التنوع الثقافى ومشروع الدولة الوطنية ثم معضلات الهوية فى مجتمع متعدد الثقافات،

---

(*) عقب أن كتبت مقال بـ «الأهرام» عن السودان فى ٧ ديسمبر ١٩٩٩ جاء الانقلاب وإعلان الأحكام العرفية يوم ١٢ ديسمبر لتؤكد أن الصراعات المجتمعية على أشدها، ومن هنا صار طرح ورقة «نداء المهتدين» للزعيم الصادق المهدى، واجبا فكريا ملحا، فأزمة السودان فكرية ثقافية حضارية، لو عمها فكر «قبول الآخر» لكانت على بداية الطريق إلى السلام والمعايشة مع الآخر فى «كدفدرالية».

وإيجاد صياغة للمعايشة بين العروبية والأفريقانية وغيرها، ولعل مشاركة المثقفين العرب في هذه الندوة تمثل إضافة تخرج السودان من التدويل أو التفكك.

## ثانيا : « آخرون » داخل أوطان العالم العربى وما هم بـ«آخرين» :

يمر العالم العربى بمرحلة انتقالية دقيقة تحدد ملامح مستقبل الواقع العربى فى الألفية الميلادية الثالثة. فالغالبية العظمى من العالم العربى تنتمى إلى الهوية «العربية الإسلامية» والتى تعتبر الرافد الرئيسى والغالب على الثقافة العربية. لكن ذلك لا يخفى أن هناك عشرات من الانتماءات الأخرى - ليست بالضرورة موضع اهتمام الأغلبية – على الرغم من أن هذه «الأقليات» موضع دراسة واهتمام من دول وثقافات غربية تؤدى أحيانا إلى مآزق سياسية وثقافية.

وعلى سبيل المثال، أكتفى بطرح مشاكل لنماذج «الآخر» فى العالم العربى وهم ليسوا بـ «آخرين» :

### ( أ ) الأقليات المسيحية فى الوطن العربى

ساهمت الأقليات المسيحية فى لبنان وسوريا والعراق ومصر فى صياغة الثقافة العربية الإسلامية بدرجات متفاوتة عبر الألفية الميلادية الثانية، بما فيها المساهمة فى حركة الترجمة العربية الواسعة فى القرون الأولى للإسلام عندما تم نقل الحضارات الإغريقية والبابلية والفرعونية والمسيحية السابقة على الإسلام إلى العربية وكانت أحد أسباب النهضة الثقافية فى تلك الحقبة ومنها نقل الغرب وهو معترف بذلك.

ومع ازدياد نفوذ وسيطرة الثقافة العربية الإسلامية على معظم الأقطار العربية فى الأحقاب القليلة الماضية وبما يطلق عليه عبارة «الصحوة الإسلامية »، تولدت حالة من القلق لدى هذه الأقليات المسيحية على تباينها واختلاف مسمياتها من الأقباط والموارنة والسريان والروم على اختلاف مذاهبهم (الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية). ومن ثم فإن قضاياها وقلقها – لمنع سلبيتها أو هجرتها إلى الغرب – من الأمور الواجبة الطرح على المستوى الثقافى، والواقع أن الوصول إلى تقنين المساواة من خلال «المواطنة» أمر ممكن بسبب أن ثقافة «قبول الآخر» موجودة ومتوافرة تاريخيا، ولكنها فى حاجة إلى تطوير ودفع إيجابى، ليتحول القبول إلى اكتشاف الأرضية المشتركة مع المحافظة على خصوصيتها الثقافية، فالثراء هو فى التنوع وقد أشرنا إلى ذلك تفصيلا فى الجزء الأول.

## (ب) البربر فى دول شمال أفريقيا العربية

تعانى الدول العربية فى شمال أفريقيا – خاصة الجزائر والمغرب – من وجود لغتين وثقافتين (وربما سلالتين) هما العروبة من جانب والبربر بلغته وثقافته الأمازيغية من جانب آخر. وربما يعود الصراع الدموى الذى يجرى داخل الجزائر من سنوات – ضمن عوامل أخرى – إلى الصدام أو الصراع بين هاتين الثقافتين، ومن ثم فمشكلة البربر فى حاجة إلى طرح ثقافى، فهو «آخر» ينبغى أن يكون له «قبول» فحوار وصولاً إلى المواطنة، حيث أثبتت الممارسة العملية أن الاعتماد على القهر العسكرى

وحده لم يولد إلا مزيدا من الدماء ومن ثم فالطرح الثقافى وقبول الآخر هو الطريق الأصعب الطويل ولكنه المضمون.

## (جـ) الأكراد في المشرق العربى

استطاع عبد الله أوجلان الزعيم الكردى المعروف، من خلال نضاله، أن يفرض على العالم حقيقة أن للأكراد هوية وأرضا وثقافة، فهم كشعب يقطنون موقعا متوسطا بين دول قديمة وراسخة هى: تركيا وسوريا والعراق وإيران، أى دولتين عربيتين ودولتين إسلاميتين، إحداهما تدعى أن دستورها علماني ولكن واقعها «ثقافة إسلامية» على الرغم من أنها لا تتكلم العربية، والأخرى دفعتها ظروف فصارت «جمهورية إسلامية» وهى أيضا لا تتكلم العربية. وسيقوم الأستاذ/ محمد صادق الحسينى بالتعقيب على هذه الورقة (وهو ينتمى إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية) ومن ثم فإن لرأيه ورؤيته فى هذه الندوة ما يضئ الطريق فى قضية «الآخر» عموما، الكردى خصوصا فهناك الأرضية المشتركة الإسلامية حتى وإن اختلفت اللغة والثقافة. وربما يكون من الإنصاف - فى مثل هذه الندوات الفكرية - أن يطرح أمر المساهمة فى قبول الأكراد كجماعة من حقها تكوين كيان مستقل، أو نشر ثقافة «قبول الآخر» فى هذه الدول المتجاورة حيث الأكراد «أقلية» مقبولة، وصولا إلى المواطنة.

## ( د ) اليهودى أو الإسرائيلى

عاش اليهود فى الوطن العربى - فى الحقبة الحديثة نسبيا - فى أوضاع متتالية كانت أولاها - من الناحية التاريخية - عندما كان

«اليهودى الآخر» مقبولا فى معظم الأقطار العربيــة الإسـلامية، وبـالذات فى اليمن والمغرب ومصر والعراق، وكانوا مساهمين كوطنيين فى كل ألوان الثقافة العربية وكان لبعض منهم شأن وخطوة فى تلك الـدول بـالذات إلى أن تم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨، وإنشاء دولــة إسـرائيل، فـهاجر إليـها تدريجيا معظم اليهود العرب.

وبعد إنشاء إسرائيل تغير الوضع كثيرا وصار هناك تضيق لأنواع ثلاثـة رئيسية من الإسرائيلى اليـهودى إذ يوجـد داخـل إسـرائيل «آخـر» فـى أشكال كثيرة، حيث الأشكناز والسفر ديم، وحيث مذاهــب وفـرق دينيـة وعرقية متباينة ليس هذا مكان عرضها، وأتصور أننا فى حاجــة إلى إلقـاء الضوء على التركيبة الثقافية والمجتمعية لإسرائيل، لأن هذه الدراســة قـد تلقى الضوء على أسلوب التعامل مع «الآخر» فى إسرائيل. وعلى سـبيل المثال، لو كان إسرائيلى متمسكا بديانته، وهى الأساس لذهنيته وبوصلتـه فى الحياة، فإن التعامل مع هذا «الآخر» يكون صعبا، لأن فلسفته مبنية على نصوص دينية فى مقدمتها أنه يهودى، ومن ثم يتولد لديه إحسـاس بالتعالى على العرب مسلمين ومسيحيين بسبب أن «اليهود هم شـعب الله المختار». وبالتالى يتولد لدى المثقف العربى على الجانب الآخـر إحسـاس مقابل بأهمية انتمائه الدينى كفعل أو رد فعل، فيردد النصـوص المقابلـة، «إن الدين عند الله الإسلام» وأننا «خير أمة أخرجت للنـاس» وغيرهـا. ولذا فإن هذه الذهنيات بين اليهودى والمسلم والمبنيـة علـى أسـاس دينـى تبدأ بالرفض الذى قد يقود إلى النفى، فلا تطبيع بل قطيعة قد تعيد مناخ الحروب فـى وقـت لاحـق إذا كـانت الظـروف المحليـة والعالميـة مواتيـة وقتها. وهذه هى الحالة الثانية والتى تؤدى إلى الرفض المتبادل.

وهناك نوع آخر للمقيم فى إسرائيل وهو «العلمانى» غير المتدين وصولا إلى «الملحد» الذى ينكر كل الأديان أصلا، ولكن لديه إحساسا بعلو ثقافة اليهودى على أساس «عنصرى»، وهى ذهنية «الصهيونية» فيتولد لدى العربى فى المقابل إحساس بأهمية الحضارة العربية فى بناء رقائق الحضارة الإنسانية فى مجملها. وهو أيضا موقف غير صحى لأن كلا منهما رافض للآخر، ولكنه رفض مؤقت لتأثره بالمتغيرات السياسية السريعة فى المنطقة، ويعيشان حالة ذهنية قابلة للتغير لأن منهجهما فى التفكير مبنى على «العقلانية» التى ترى أن الصراع العربى – الإسرائيلى له بعد حضارى، أى تنافس فى الارتقاء، فتكون المناقشة صحية، ولا تقاوم «الحوار» مع الآخر، وبين الحين والآخر قد يحدث غليان فى الموقف السياسى العام فى المنطقة فيقود إلى ذهنية «فاشية» تنتهى بالصراع وصولا إلى الحرب وهو احتمال قائم على المدى البعيد.

وقد يوجد نوع ثالث مثل العرب (المقيمين من قبل ١٩٤٨) الحاصلين على الجنسية الإسرائيلية ومعظمهم ليس «آخر» بالنسبة للمثقف العربى، كما قد يكون هناك إسرائيلى منتميا إلى بعض فرق اليسار، ولا يرى حلا لإسرائيل إلا بالمعايشة مع العرب ومن ثم فلديه «قبول الآخر».

وبين هذه التصنيفات المختلفة يتحدد ويتجدد موقف المثقف العربى فى التعامل مع مواطنى «إسرائيل» وهى قضية خلافية وستظل كذلك لفترة طويلة قادمة متأثرة بالمتغيرات السياسية سريعة الحركة فى السنوات القليلة القادمة.

## ثالثا : «آخرون» على مستوى الأقطار العربية الأخرى

يحسن للمثقف العربى أن يتعامل مع أخيه المثقف العربى الذى ينتمى إلى قطر عربى آخر بنظرة متفهمة للخصوصية الثقافية لهذا القطر بهدف اكتشاف الأرضية المشتركة بدلا من «التفتيش» عن نقاط الخلاف فى اتجاه الرفض أو النفى، لأن مستقبل الأمة العربية - طال الأمد أم قصر- هو فى التعاون الاقتصادى والثقافى لأنه الركيزة لأى نوع من «التكتل الاقتصادى» أو الوحدة السياسية. ولنأخذ من النموذج الأوروبى مثالا يدرس كما يمكن أن يحتذى. ولن يستطيع القادة السياسيون بناء جسور التفاهم والتقارب وتجاوز «جروح» الماضى البعيد أو القريب، إلا من خلال تقارب المثقفين، فهم أكثر حرية ومرونة من متخذى القرار - ومن هنا كان تقديم الأفكار الواردة فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

والمشاهد فى معظم لقاءات المثقفين العرب وجود حساسيات مرهفة تؤدى إلى تفجر وحدة النقاش بين المثقفين المنتمين إلى أيديولوجيات مختلفة ، فالكراهية مازالت موجودة وإن كانت مكبوتة بين مجمل التيار الدينى والأصولى(*) من جانب وبين مجمل التيارات الليبرالية واليسارية

---

(*) وفى هذا الإطار، وعندما قرأت تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسينى على هذه الدراسة، والتى تقدم رؤية نقدية إيجابية - من خلفية دينية شيعية - رأيت أن نعمم الفائدة، بأن أنشر أيضا - فى هذا الكتاب - ورقة ورؤية الصادق المهدى، باعتباره فكرا له نبع سنى تراثى في السودان الشقيق، لعل التفاعل والتباين يولد حوارا أوسع داخل التيار الإسلامى فى مجمله، كمرحلة أولى يتبعها حوار أوسع داخل الوطنى العربى الإسلامى، فننتقل تدريجيا إلى مرحلة «حوار الحضارات».

من جانب آخر. والتصور أنه قد آن الأوان – من خلال مثل هذه النـدوات الفكرية – لأن تتولد أرضية «قبول الآخر». ففى ذلك فائدة وآثـار حميدة على المناخ الثقافى العربى العام، وسوف ينعكس هذا التوجه على توسـيع الممارسات الديمقراطيـة فـى الأقطار المختلفـة. فـالواقع العربـى فـى هـذه المرحلة لن يتغير بين يوم وليلة، فالتفاعل بين مثقفى كل قطـر فـى إطـار قبول الآخر (كما ذكرنا فى بند أولا فى هذا الجزء الثانى) ثم دعمـه علـى مستوى الأقطار العربية، سيوفر مناخا مختلفا ويفجر طاقات إبداعيـة فـى كافة المجالات الأدبية والثقافية والفنية.

## رابعا : «الآخر» خارج العالمين العربى والإسلامى

من غير الممكن، فى مثل هـذه الورقـة محـدودة المسـاحة، أن نتعـرض للموقف خارج الوطن العربى والإسلامى، فهذا يقودنا بالضرورة إلى مؤلـف يناظر مؤلف نظرية صموئيل هانتجتون «صدام الحضارات وإعادة صياغـة العـالم» وفـى مواجهتـه فدراسـات الحضـارات العالميـة الحاليـة معروفـة ومتوافـرة فـى مؤلفـات كثـيرة، وهـى مقسـمة مـن الناحيـة الجغرافيـة إلى الحضـارات المؤثـرة حاليـا فـى ثقافـة العـالم – ولكـل منـها خصوصيتـها وخصائصها – كمـا أنـها مدروسـة مـن الناحيـة التاريخيـة حيـث كـانت الحضارات القديمة فى مصر وبين النهرين والهند والصين وربما المكسـيك.
وآثرت – إيجاز شديد – أن أشير إلى ما يمكن أن تكون عليه نظرة المثقف العربى إلى « الآخر » فى الثقافات أو الحضارات الرئيسـية التـى ذكرهـا هانتجتون أو غيره على النحو التالى:

## ( أ ) « الآخر » فى « الحضارات الغربية »

توجد علاقات تاريخية بين العالم العربى وبعض الدول فى أوروبا، فإنجلترا (أو بريطانيا العظمى) كانت محتلة أو مؤثرة - وحتى الآن - فى ممارسات الحكم واللغة والثقافة فى دول عربية كثيرة، ولفرنسا تأثير ملحوظ على دول شمال أفريقيا من تونس ثم الجزائر فالمغرب ثم فى لبنان وربما سوريا، وكانت ليبيا تحت حكم الاستعمار الإيطالى، ويبدو تاثيرها جليا على المعمار وتخطيط المدن فى طرابلس عاصمة الجماهيرية العظمى حتى الآن.

فى العصر الأحدث وعندما زاد نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وسع ظهور البترول كمورد رئيسى رخيص للطاقة زاد نفوذ الثقافة الأمريكية فى معظم دول المنطقة بدرجات متفاوتة.

ومن ثم فليس من سبيل إلا التعامل مع « الآخر » المنتمى إلى الغرب. والملاحظ أن هناك رؤى مختلفة للمثقف العربى بالنسبة « للآخر » فى الغرب، فالبعض منبهر بما وصل إليه الغرب من تقدم علمى وديمقراطية متمثلة فى التداول السلمى للسلطة، وهو أمر مفتقد فى العالم العربى بشكل عام، وهناك مثقف آخر رافض للغرب، ويعتبره غازيا يحاول فرض ثقافته وأسلوب معيشته وعلينا مقاومته ورفضه، وثالث لا يجد سبيلا إلا فتح الحوار وبناء جسور معه وإلا همشنا.

## (ب) الآخر فى الشرق الأقصى

يوجد قبول وجدانى لدى المثقف العربى مقرونا بالتقدير والرغبة فى معرفة المزيد عن « الآخر » المنتمى إلى حضارات الشرق الأقصى على

اختلافاتها من البوذية إلى الكنفوشية إلى الشنتو. فاليابان نموذج لدولة تنتمي إلى أقصى الشمال « الشرقى » واستطاعت أن تتجاوز التخلف «الشرقى» بكل صوره وتنافس الغرب فى عقر داره. وهى مثال فريد نحن كعرب فى حاجة لأن نعرف المزيد عن جذوره الثقافية. وغالبا ما تكون اليابان هى المبادرة بمعرفتنا، ويقف اهتمامنا غالبا على الانبهار بإنجازاتها التكنولوجية والاقتصادية دون فحص الجذور الثقافية وهى كنز نحن في حاجة لفتحه.

ثم هناك الصين أكثر دول العالم تعدادا وكثافة سكانية، وقد تجاوزت الانتماء العقائدى الماركسى تدريجيا ومزجت التراث بالمعاصرة. ويتطلع إليها المثقف العربى بإعجاب ممثلة فى «التنين» الذى يعمل فى صمت وبإصرار لكى يوقف زحف الحضارة الغربية الكاسح. وللصين حضارة لها خصوصيتها الثقافية بسبب أنها رقيقة زمنية واحدة سميكة مستمرة لآلاف السنين بذات التركيبة العرقية واللغة والعقيدة الدينية بخلاف مصر حيث توجد رقائق متتالية من الحضارات الأربع: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام، فقد تغيرت الديانة واللغة فى مصر - عبر تاريخها الطويل ثلاث مرات، وهو أمر شرحته تفصيلا فى كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية»، ومن ثم فالصين كحضارة نعتبرها نموذجا لآخر ينبغى أن نفتح معه حوارا وفكرا وثقافة واقتصادا ونبنى جسورا بقدر أكبر مما هو الآن.

وينطبق الشىء ذاته - مع خلافات طبيعية - على علاقاتنا مع باقى دول الشرق الأقصى مثل: الهند - ماليزيا - كوريا - تايوان - إندونيسيا وغيرها.

## ( ج ) حضارات لها علاقات « خاملة » مع العالم العربى

عندما قام عبد الناصر بالمساهمة مع نهرو وتيتو وتشوااين لاى بتكوين كتلة « عدم الانحياز» انفتحت مصر والعالم على حضارات كثيرة. ولكن مع تغيير التوازنات العالمية، ضمرت صلة العالم العربى الثقافية مع كل من أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهو أمر أراه مهما للطرح لأن المثقفين طليعة بناء الجسور مع الحضارات الأخرى، خصوصا أن أفريقيا - ومن خلال السودان - هى امتداد طبيعى لصلات ثقافية. وقد يكون بناء جسور ثقافية بين مجمل العالم العربى وحضارة أفريقيا والسودان عاملا مساعدا فى حل مشاكل الهوية فى السودان، وإيجاد صياغة توفيقية بين العروبية والأفريقانية، ومن وجه نظرى الشخصية، فإن العديد من مشاكل مصر سيكون حلها فى انفتاح أكبر على أفريقيا، فمن المؤكد أن الجسور الثقافية هى التمهيد للتعاون الاقتصادى.

أما دول أمريكا اللاتينية، ففيها جاليات ذات جذور عربية لها نفوذ وحضور وقد لاحظت - بعد حصولى على جائزة سيمون بوليفا، محرر أمريكا الوسطى - أن الدبلوماسيين والمثقفين هناك يشكون من ضعف الصلات الثقافية بين العالم العربى وأمريكا اللاتينية، والمقترح أن تبنى جسور ثقافية من خلال عدد ضخم من المصريين الملمين باللغة الأسبانية وعدد مناظر من الأسبان الملمين باللغة العربية.

# الملخص

بين مئات وربما آلاف من المجموعات البشرية المتباينة بين الحضارات وداخل الأديان والأعراق، قد توجد مشاعر إيجابية ممثلة في «قبول الآخر» وهذه الحالة ليست استاتيكية بل ديناميكية، فالقبول يتحول إلى «حوار»، ومع استمرار الحوار يتحول إلى «فهم» الآخر ثم استحسان بما لديه من اختلاف، وسيجد المرء استمتاعا بمعرفة تفاصيل التباين والتنوع، وبعدها يتحول هذا الثراء إلى «معايشة» فاكتشاف «الأرضية المشتركة» التى تجمع البشر أكثر مما تفرقهم، ومن هنا تتولد مفاهيم «المواطنة» أى الانتماء إلى الوطن ككل وهو أرقى من الانتماء الدينى أو العرقى، وهنا تجئ عبارة «الوحدة الوطنية» أو الوفاق الوطنى تجسيدا للمعايشة والتى غالبا ما تكون مقرونة بالود المتبادل.

أما إذا سادت ثقافة ومفاهيم «رفض الآخر» كما فى حالات كثيرة مثل حالة السودان، من خلال إثارة وطرح خلافات وعداوات تاريخية قد مضت وانتهت، يصير استدعاؤها وتضخيمها لأسباب سياسية أو لدعم نظم شمولية لديها مصلحة فى خلق التماسك الداخلى وفرض نفوذ ايديولوجية الحكم السائدة من خلال كراهية الآخر ورفضه. فإن المجتمع قد يدخل فى عملية Process سلبية تزداد فيها الكراهية ويتحول الرفض " محاولة النفى، أى اجتثاث جذور «الآخر» ومنع حقه فى المعايشة.

وربما كان فى مثال تعامل تركيا مع الأكراد نموذجا لذلك، إذ تجد الحكومات والشعوب التى دخلت فى هذه الحلقة المفرغة مستعدة لإشعال حالة حرب عند أى مناسبة يمكن افتعالها. أما حالة اللامبالاة بالنسبة للآخر فهى مثل حالة خط التعادل الكهربائى أو كثيرا ما يشار إليها بعبارة «دع الفتنة نائمة» وغالبا ما لا تستمر هذه الحالة طويلا، إذ تتحرك إما إلى الطريق الإيجابى فتصل إلى مرحلة «قبول الآخر» وما بعدها، أو تتجه إلى السبيل السلبى فتدخل حالة رفض الآخر، وصولا إلى نفيه ثم الحرب ضده، وهو ما أشرنا إليه سابقا.

وبنظرة مستقبلية متفائلة أتوقع أن تنحسر موجة كراهية ورفض الآخر السائدة حاليا فى مواقع كثيرة ويحل محلها إيجابيا ثقافة وفكر «قبول الآخر»، ثم تتسع قبولها كـ«أيديولوجية» أكثر رقيا. إذ سيكتشف الإنسان أن فى الاختلاف والتباين والتنوع جمالا وثراء، فيتحول الصراع الثقافى إلى تباين وتنوع وكأنه لوحة من «الموزاييك» تحمل ألوان الثقافة والمعرفة وكذلك الخصوصيات الثقافية المختلفة، فيصير الوطن أو المنطقة فى شكل حضارة «الموزاييك» ذات الألوان المختلفة والتى تقدم لوحة جميلة بين المثقفين أولا، ثم بين البشر كافة فى داخل الوطن أو المنطقة أو حتى تعم مع الزمن الطويل كل أنحاء العالم.

واستطرادا لآلية التفاؤل الإيجابية، سنجد أن هذه اللوحة من «الموزاييك» الحضارى ليست ثابتة وجامدة أى استاتيكية، بل هى فى حالة حركة مستمرة لاختلاط الألوان والتفاعل الايجابى بين الحضارات والخصوصيات الثقافية. ومع الوقت والحوار تتولد أنماط جديدة من الفكر

والثقافة وهى التى أشير إليها بعبارة «التلقيح الثقافى» بين المفاهيم والقيم والعادات وأنماط السلوك، وصولا إلى التفاعل الثقافى بين الأيديولوجيات والأديان. فتخف حدة الصراعات ويزداد ثراء الحوارات ويدخل العالم طورا جديدا من التعايش واحترام الحضارات المختلفة والأديان المتباينة وهى عملية ديناميكية قد تأخذ زمنا ليس بالقصير، ولكن المهم هو الوقوف على عتبة التوجه الإيجابى من خلال «قبول الآخر» ، فهو نقطة البداية فى الاستنارة وتغيير مناخ الكراهية والرفض، وهو أمر موجود حاليا فى دول وأقطار مختلفة، ليس فى شكل صراع الحضارات حسب نظرية هانتجتون وإنما داخل كل حضارة بل وداخل كل دين وعرق ومذهب.

## كلمة ختام

لقد آثرت أن يضم دفتى هذا الكتاب الدراسات والتعقيبات التى يقدمها مفكران لكل منهما خصوصيته الثقافية فالأستاذ محمد صادق الحسينى يمثل فكر شيعى مستنير، أما الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدى، فإنه صاحب اجتهادات كثيرة نتيجة تجاربه فى الانفتاح على كل ألوان الحضارات والتى استوعبها ومزجها بما حصله من التراث الإسلامي باعتباره صاحب العهد لأنصار الله أى لأنصار الحركة المهدية السودانية.

# المراجع

1. Samuel P. Huntington, The Clash of Civilization and The Remaking of World Order, 1996, Simon & Schuster, New York, N. Y.10020

الترجمة العربية : صموئيل هنتجتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى

ترجمة : طلعت الشايب ، الناشر سطور ، ١٩٩٨

2. Our Creative Diversity, Report of World Commission on Culture & Development. UNSCO. 1996.

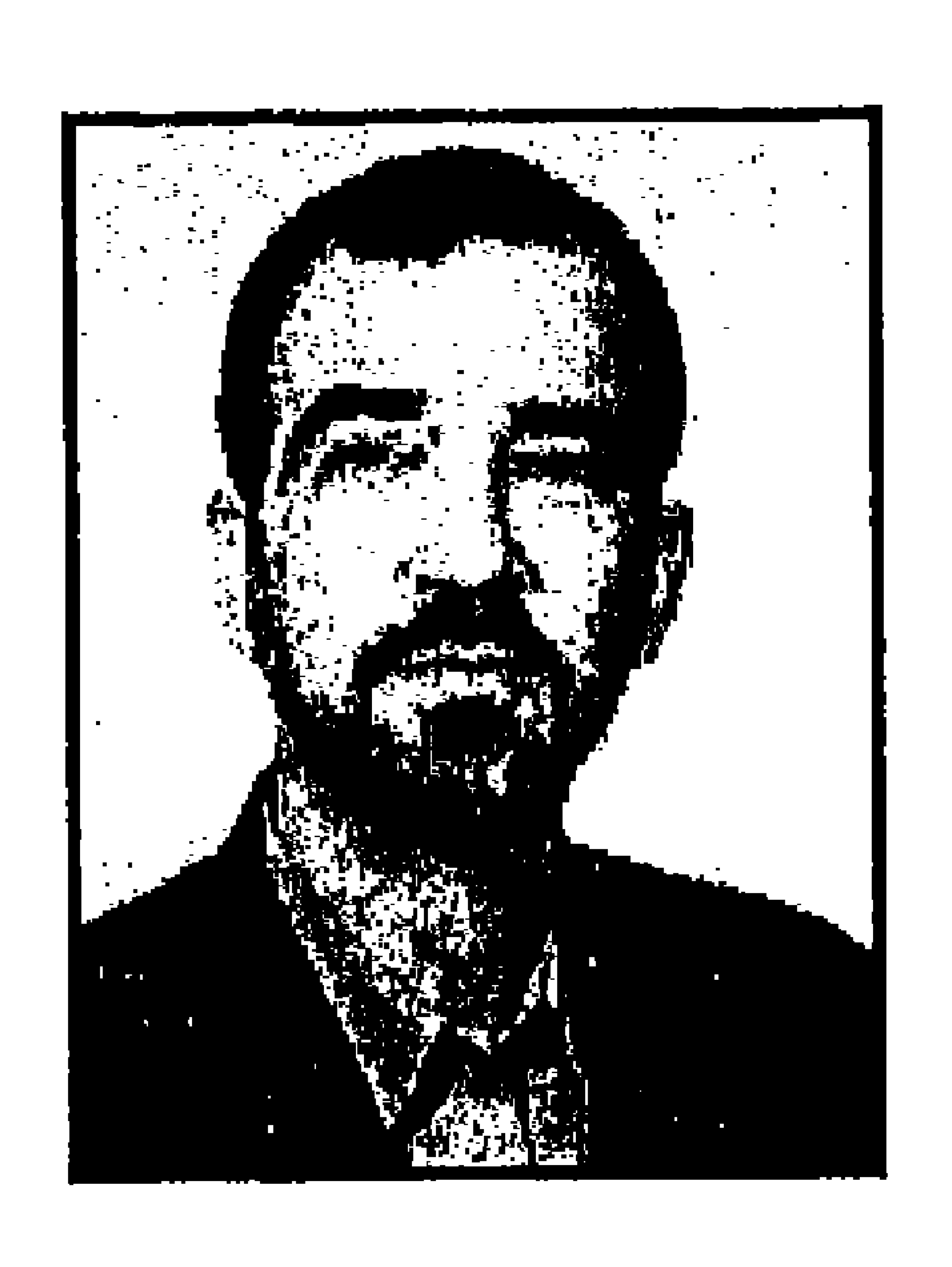
الترجمة العربية : التنوع البشرى الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية ، صادر من المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦.

٣ – د . سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق عام ١٩٩٤ – مركز ابن خلدون – القاهرة.

٤ – د . ميلاد حنا ، قبول الآخر ، الطبعة الثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩ – الطبعة الثالثة – دار إعلامية – القاهرة.

٥ – د . ميلاد حنا ، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨.

5. Francis Fukuyama, The end of History, The National Interest Summer 1989.
7. Edward W. Saïd, Orientalism, Pantheon Books, 1978.
8. Max Weber, The Sociology of Religion, Trans. Beacon Press, Boston 1968.
9. Oswald Spenger, World History is the History of Large Cultures, New York, 1926.



# رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر

الكاتب الشيعى

محمد صادق الحسينى

المستشار الإعلامى لوزير الثقافة الإيرانى

# رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر

## للكاتب الإسلامى الشيعى

## محمد صادق الحسينى

## فى تعقيبه على ورقه د. ميلاد حنا

لقد قرأت بعناية دراسة أخينا الدكتور ميلاد حنا من مصر الشقيقة الكبرى حول موضوعه «المثقف العربى - وقبول الآخر»، فاستفدت منها كثيرًا وتعلمت الجديد من عناصر تشكيل المعرفة الإنسانية، وإذا أؤكد فى تعقيبى على أننى أتفق مع جوهر ما ذهب إليه من أن قبول الآخر نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وأشاطره الرأى فى كثير مما ذهب إليه من عرض إنسانى للرأى والرأى الآخر وقراءة للتنوع الطبيعى للخلق والإنشاء فى إطار من الوحدة، إلا أننى أود التشديد أيضًا على أننى اختلف فى بعض ما ذهب إليه من الاستنتاجات أو ما شخصه من مصاديق مع ضرورة التأكيد مجددًا على أن ذلك لا يفسد لاتفاقنا المبدئى فى الرؤية الشاملة لموضوعه «الآخر».

### قضية الاختلاف سنة كونية والتنوع أمر محمود

أجمع العرب على أن الاختلاف والمخالفة فى اللغة تعنى أن ينهج كل شخص طريقا مغايرا للآخر فى حاله أو فى قوله والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين. وتتسع مقولة الخلاف

والاختلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والجدال والمجادلة وما إلى ذلك، لكن الاختلاف يبقى سنة كونية لا مناص منها وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى مناسبات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

**﴿إنكم لفى قول مختلف﴾** (الذاريات/٨).

**﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾** (مريم/٣٧).

**﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** (يونس/٩٣).

**﴿ولا يزالون مختلفين﴾** (هود/١١٨).

وعلى هذا يمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد بها مطلق المغايرة فى القول أو الرأى أو الحالة أو الهيئة أو الموقف.

لا شك أن كلاً منا يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل ذلك عادة ما يفضى إلى تعدد فى الآراء والأحكام والمواقف. وكل ذلك يدل دلالة لا لبس فيها على أن إعمار الكون والأرض وما عليها لم يكن ليتم، كما هو حاصل، لو أن البشر خلقوا سواسية فى كل شيء.

قال تعالى: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** (هود/١١٨ — ١١٩).

وهكذا نجد أن الاختلاف سنة طبيعية وإذا ما التزم الناس بآدابه كان ظاهرة إيجابية، والمشكلة تبدأ عندما يتحول النزاع إلى جدل وشقاق

فتذهب ريح الجماعات والأقوام وتفشل وتشيع الحروب وينتشـر الخـراب في ديارهم.

## القبول بالآخر شرط لاحترام الذات

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿**يا أيـها النـاس إنـا خلقنـاكم مـن ذكـر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عنـد الله أتقـاكم**﴾ (١٣/٤٩) سورة الحجرات.

فالإسلام هنا يعترف بالآخر وبقوله وبشروط متساوية في الخلق والنشأة دون أن يحدد هوية الآخر أو نمط تفكيره أو انتماءه ويحدد سلفا بأن معيار التقويم والخطأ أو الصواب والحساب والكتاب والثواب والعقاب كلها أمور تتلخص في التقوى، وبمعنـى آخـر بنتـائج سـلوكيات ذلـك الإنسـان أيـا كانت أصوله وجذوره أو انتماءاته وارتباطاته.

وصدق رسول الله محمد الأمين إذ قال: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (منهاج الصالحين — عز الدين بليق) كما صدق ابن عمه أمير المؤمنين والخليفة الرابع للمسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يشدد على مالك الأشتر عامـلـه علـى مصر في خطاب العـهد الشـهير إذ يقـول: «ثـم اعلـم يـا مـالك.. فإنـهم (الناس) صنفان إما أخ لـك فـي الديـن أو نظـير لـك فـي الخلـق» (نـهج البلاغة) أليس هو من قبيل الإقرار بحقوق متساوية للجميع من ذكر وأنثى ومن جماعات الرأي والرأي الآخر ومـن الأقليـات العرقيـة والدينيـة أمـام الحاكم وأمام القانون؟!

أليس هو ذلك التشريع الأزلى الذى يرفع الفروق والتمييز بين الطبقات والجماعات من رعايا الدولة الواحدة، بل من الإنسانية جمعاء أثناء تمتعهم بحرياتهم المشروعة بما يتواءم والحديث المأثور الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب» وكلنا يعرف كم هو آدم مكرم ومعزز ومقدر عند الله سبحانه وتعالى ومفضل حتى على الملائكة أجمعين.

## ثقافة الحوار ليست ترفا فكريا:

لقد آليت على نفسى ألا ابدأ إلا بالرأى القرآنى والإسلامى حول موضوعة القبول بالآخر حتى أرفع بداية بعض الشوائب أو الشبهات التى قد تلحق بالإسلام بسبب بعض سوء الفهم الذى قد ينشأ فيما لو قرىء أو تمت قراءة الدكتور ميلاد حنا خطأ أو بعين واحدة.

أقول ذلك ونحن نعيش على عتبة الألفية الثالثة للميلاد حيث بات الحوار ضرورة عالمية مادام الواحد منا جادا فى سعيه نحو رفعة الإنسان فى البيت والمدرسة والعمل والقرية والمدينة والوطن والعالم أجمع، ولما كان العالم يتجه كله نحو التكامل فى كل المجالات وبات من المستحيل لجماعة أو دولة بمفردها تحمل أعباء التطورات العلمية المذهلة وانفتاح الحدود فى ظل ثورة الإعلام والاتصالات والمعلومات، ورغم وجود دوافع أنانية للسيطرة والهيمنة واستغلال ظاهرة العولمة إلا أن الحاجة للتكامل تجعل ظاهرة الحوار حاجة ضرورية لابد منها.

من جهة أخرى فإن شبح الحروب المتعددة التى لا تزال تلقى بظلالها على العالم وبعد مضى قرن خلفت وراءها آلاما ومآسى إنسانية لا تحصى

استغل فيه كل شيء حتى الدين في بعض الحالات أسوأ استغلال، فإن الواجب يستدعى الواحد منا للدفاع عن فكرة الحوار ومقولة التعايش مع الآخر بكل ما يملك من عقلانية وعاطفة ليس فقط إيمانا بمبدأ الحوار كسنة كونية بل ومن أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية وفى مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية التى تم ويتم تشويهها على أكثر من يد، وفى أكثر من مكان وعلى أكثر من منبر.

بعد هذه المقدمة الضرورية أتقدم ببعض ملاحظاتى على دراسة الدكتور ميلاد حنا أرجو أن تمثل إضافة إلى ما أفادنا بـه واستمتعنا بمعرفته وأن يتسع صدره لقبولها فى إطار ثقافة الحوار وقبول الآخر.

## ملاحظات على الرأى الآخر للدكتور ميلاد حنا

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾ (سبأ/٢٤، ٢٥).

إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وهو على كل شيء قدير، الذى بإمكانه أن يفعل ما يشاء ويحيى ويميت من يشاء ومتى يشاء، أبى على نفسه إلا أن يترك باب احتمالات المستقبل مفتوحا برغم علمه بالغيب، ولم يرد حسم الموقف لصالح أحد فى باب الحوار والاختيار والانتخاب، والمراد فى مجمل ما ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر، وهو ما يتبين أيضا بصورة أكثر وضوحا فى حواره المفتوح مع إبليس والذى كان بإمكانه

أن يشطبه من الذكر الحكيم ليقول كن فيكون، المراد أن يمنحنا نبـذة من ثقافة الحوار التي يجب أن تسود.

الله الذى «كل يوم هـو فـى شـأن»، الله خـالق الأضـداد المتعايشـة، خالق النور والظلام، خالق الليـل والنـهار، خـالق الخـير والشـر، خـالق الوجود والعدم، هو الأول والآخر لا يريد أن يحسم سلفا فى أى حوار بين البشر لمن ستكون الغلبة، ومن هو صاحب الحق وكلمة الفصـل والخطـاب عندما ترك الأمر مفتوحا للسجالات بين أبناء البشرية، لتقرر هى بنفسـها مصيرها وخياراتها ولتكتشف بنفسها الخيط الأبيـض مـن الخيـط الأسـود بجهدها ومساعيها.

نعم هناك ثوابت هى جزء لا يتجزأ من السنن الكونية وقوانـين الخلـق والنشأة الربانية أو الإلهية. لكن الكثير مما يهمنا والذى يقع علـى عاتقنـا نحن بنى الإنسان يدرج فى خانـة المتغيرات، ومـن أهـم تلـك المتغيرات بنظرى إدارة شؤوننا الداخلية نحن بنى البشر، وفى طليعتها علاقـة كـل منا بالآخر، ابتداء من النظرة الفلسفية وصولا إلى الأداء اليومـى فـى إدارة شؤون البلاد والعباد. نحن الذين نصنع السلام والوئام والتعايش، كما أننا نحن الذين نصنع الأحقاد والتمييز والحروب بكل أشكالها.

نحن الذين نمارس قانون الغاب على أنفسنا عندما لا نحترم إنسـانيتنا التى فضلنا الله بها على الحيوان والنبات والجماد. كما أننا نحـن الذيـن بإمكاننا أن نصنع الحياة النموذجية المثلى التى يرتفع فيها الإنسـان - مطلق الإنسان - إلى درجة خليفة الله فى أرضه، فنحـترم حقـوق أخينـا الإنسان الآخر حتى فى أقسى لحظات العقاب والمجازاة.

أقول هذا فى محاولة لإضافة بعـض الأفكـار الأوليـة إلى دراسـة أخـى الدكتور ميلاد حنا فى محاولة لإثـارة الأسـئلة ولفت الانتبـاه إلى القـراءة الأخرى لما ورد فى أطروحاته:

١ – إن الطرق للوصول إلى الله برأيى بعدد أنفاس الخلائق، وتاليا فإن الطرق للوصول إلى حقيقة الشيء وكنهه، ومن ضمنه ما ذهب إليه الدكتور ميلاد حنا، لابد أن تكون متعددة.

٢ – إن المشكلة برأيـى فـى غيـاب نظريـة قبـول الآخـر لا تكمـن فـى نواقص أو معوقـات مقـولات الوطنيـة أو القوميـة أو الأصوليـة الدينيـة أو التخندق الثقافى، أو ما شابه من التخندقات التى هى بنظرى مـن الأمـور الطبيعية لـدى الإنسـان، وإنمـا نجدهـا تظـهر عندمـا نصـر علـى القـراءة الأحادية لهذه المقولات. وبالتالى لابد لنا من إشاعة وجود قراءات متعددة ومختلفة لكل مقولة. وإنما يتميز الإنسان وبنـو آدم عـن سـائر الموجـودات فى قدرتهم على الإبداع. ومن لا يحترم إبداعه الإنسانى هو الـذى لا يقـر بإبداع الآخرين ونظرياتهم التكميلية وآرائهم المتنوعة.

٣ – إن التطور البشرى وصل إلى درجة معينة من الكمال تفرض علينـا جميعا التزام المواثيق والعهود الخاصة بحرية الفكـر والتعبـير، واعتبارهـا موضوعات دستورية وقانونية تحكم سـلوكياتنا نحـن المثقفين أولا، تمامـا كما تحكم قوانين كل بلد مواطنى ذلك البلد.

٤ – الإقرار بضرورة قبـول بعـض الثوابت الكونيـة التـى بـاتت ملكـا للبشرية بالمطلق، والتى تعتبر جزءا من الغريزة الإنسانية وميلـها للتسـليم للفطرة الكونية فيما تبقى المتغيرات حقا سياسيا من حقوق تقريـر المصير،

كما قال رسول الله محمد الأمين (ص) «أنتم أدرى بإدارة شؤون دنياكم». كما جاء في مضمون الحديث الشريف.

٥ - وهنا لابد من التأكيد على ضرورة احترام الخصوصيات الفردية والجماعية الثقافية والدينية والحضارية باعتبارها حافزا على شحذ الهمم الإبداعية ورفعة للبحث العلمي وتوقد الفكر البشرى.

٦ - للتخلص من مساوئ «التخندق»، الذى يعترض عليه الدكتور ميلاد حنا، يمكن تعميم ثقافة المستويات المختلفة للتعامل مع الآخر منعا للتمييز ووصولا إلى فكرة المواطنة العالمية أو الكونية إذا ما جاز التعبير. فنقول إن ما يجمع البشر فى المستوى الأول هو الجوهر الإيمانى، إذ يتساوى الجميع هنا فى كنه تعلقهم بالكمال المطلق وهو الله تعالى، فيما يختلفون فى مستويات التشريع المختلفة حسب التطور الزمانى والمكانى فى المستوى الثانى، ومن ثم يختلفون أكثر فى مستوى العلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم فى المستوى الثالث حسب كل بلد أو موقع من مواقع الانتشار البشرى.

وهنا لابد من إشاعة قراءات متصالحة بين الدين والعلم والعقل من جهة، وكذلك بين الحاكم والمحكوم، أو السلطة والرأى العام من جهة أخرى، بما يؤسس لمصالحات تاريخية محلية وعالمية تصلح إطارا لحوار شامل بين الثقافات والحضارات.

٧ - إن المشكلة الخاصة بالنص الدينى - بنظرى - لا تكمن فى النص الدينى نفسه وكونه يعرض على أنه مقدس، فهذا حق من حقوق المتدينين قاطبة، بل هو حق من حقوق العقائديين إلى أى أيديولوجية انتموا.

والمشكلة تبدأ عندما لا يقر المتدينون والعقائديون بوجود فهم أو قراءة مختلفة للنص بين آحاد بنى البشر، والتى تختلف أيضا من زمان لآخر، ومن مكان لآخر وظروف مختلفة من التطور البشرى. وتصبح المشكلة أصعب وأعصى على الفهم والاستيعاب عندما تصبح القراءة البشرية المتواضعة للنص، قراءة مقدسة!

**وعند هذه النقطة أود الوقوف قليلا لأورد بعض الملاحظات الخاصة:**

( أ ) لدينا قاعدة شرعية معروفة تقول: «ما حكم به الشرع حكم به العقل وما حكم به العقل حكم به الشرع»، لا بأس هنا من تعميمها فى التعامل مع مقولات قراءة النصوص تسهيلا لعملية المصالحات التى ذكرت أعلاه.

(ب) تفيد التجربة الإيرانية التشريعية خلال العشرين سنة الماضية بأن القاعدة العملية القادرة على الجمع بين المحافظة على «طهارة النص وقدسيته» وفتح باب المناورة والاجتهاد أمام واضع القوانين هى أن تكون القوانين الموضوعة «لا تتعارض مع النص الشرعى»، وليس بالضرورة أن تكون «متطابقة» معه.

٨ - فيما يخص المجتمعات أو الدول الأحادية التوجه ينبغى علينا تشجيع دوائر المثقفين فيها باللجوء إلى السؤال وتعميم نظرية المساءلة والمساجلة الهادئة والحوارية وطرح مقولة «إن مجتمعا لا يسأل هو مجتمع ميت»، وإن توسيع المدارك العقلية لا يتم إلا عبر السؤال.

٩ - إن نموذج لبنان بوجه خاص، وهو بنظرى لوحة جمالية رائعة من لوحات الإبداع الإلهى والتعايش البديع بين الثقافات والديانات

والحضارات أكثر ما يصلح فيه مفهوم المواطنة العالمية الذى يقوم على أساس الجوهر الإيمانى الواحد للأديان والمعتقدات، والذى ينبغى لنا أن نرعاه كمثقفين، ليبلور نظاما تشريعيا إنسانيا فريدا ومتميزا يصلح كنموذج قابل للتأمل وربما التعميم فيما لو تم التعامل مع تلك اللوحة البديعة للقدر بدرجة عالية من التخصيص والخصخصة فى الإدارة، وسن القوانين «الفيدرالية» أو «المناطقية»، أو ما يمكن أن ينجزه اللبنانيون أنفسهم من آليات جديدة فى مجال الأداء الإنساني المتقدم بما يخدم إعادة صياغة لبنان على يد مثقفيه.

١٠ - ليست عندنا، برأيي، مشكلة فى العالمين العربى والإسلامى اسمها الأقليات الدينية وخصوصا مع المسيحيين. عندما يسود العقل وتحكم النظرة الثقافية العقلانية، فالمسيحيون العرب على ما أظن مسلمون يذهبون إلى الكنيسة، أى أن الرافد الأساسى لما يحملونه من ثقافة هو رافد الحضارة الإسلامية التى صنعت تراث وحضارة المنطقة كلها. المهم كيف نتعامل مع خصوصيات أهل هذه الديانة بما لا يستفز مشاعرهم وأحاسيسهم وقراءاتهم المختلفة والمتنوعة عن الحضارة وعن تراث ودين هذه الأمة وهذه البلاد.

١١ - أما فيما يتعلق بالأقليات العرقية فالمشكلة تبدو معقدة وتركيبية بعض الشيء، غير أن جوهرها أيضا يظل فى السياق نفسه، وهى برأيى ليست مشكلة أوطان وحدود بقدر ما هى مشكلة ثقافية وحضارية وأحيانا سياسية مقيتة. بمعنى أن القمع أو الاضطهاد الذى يتم فى بعض المواقع يتم على أساس احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، لكونه واقعا فى الأطراف ولا يمتلك إمكانات، أو لكونه لا يمتلك إمكانات غنية تفيد المركز، أو

العكس أحيانا، لأنه يختزن ثروات يريد نهبها المهيمنون على المركز. مما يجعل الأمر مختلفا بين موقع وآخر حسب تلك الظروف.

فالأكراد مثلا ليسوا أبناء ثقافة الآخر، ومشكلتهم لا تكمن دوما لكونهم ينتمون إلى العرق الكردى. ففي تركيا مثلا كانوا يحاربون لكونهم شكلو «عالة» على المركز لفترة، ولضعف إمكانات منطقتهم وصعوبتها، وفى العراق، لأنهم يختزنون ثروات هائلة ظل أصحاب المركز يطمعون فيه ويريدون الاستئثار بها وحدهم، وفى إيران ظلوا بعيدا عن المساهمة فى صناعة القرار، لأنهم «مثقفون من الدرجة الأولى» من الناحية المدنية والحضارية. وهو ما كان يقلق أرباب المركز ويمنعهم من ممارسة هيمنتهم على القرار القومى والوطنى. وهكذا تتحول النظرة إليهم اليوم فى البلدان الثلاثة المذكورة نتيجة للتحولات العالمية أو الإقليمية أو الداخلية، بما يساهم فى توازن المعادلة من خلال إشراكهم ولم يعد بالإمكان الاستمرار فى إهمالهم.

١٢ - فيما يخص موضوع الآخر فى الكيان الصهيونى الإسرائيلى:

( أ ) لابد من التفريق بين اليهودى والصهيونى دينا وثقافة وانتماء حضاريا.

(ب) لابد من التفريق بين اليهودى المتدين فى المنطقة المحيطة بالكيان الإسرائيلى وبين المثقف الإسرائيلى، أو المواطن المساهم فى مساندة ورعاية وحماية الكيان الغاصب للأرض الفلسطينية العربية.

(جـ) المشكلة مع «الآخر» اليهودى الإسرائيلى صهيونيا كان أم غير صهيونى هو فى كونه مازال يمثل المغتصب. وبالتالى لا يجوز هنا إضعاف

ثقافة الممانعة أمام اليهودى التوسعى العدوانى المهيمن تحت عنوان «قبول الآخر»، واستمرارا، لابد من ترسيخ هذه الممانعة دفاعا عن الحق الفلسطينى والعربى، لأن حقوقنا فى غير ذلك تضيع إلى الأبد. فالتطبيع يجب أن يظل محرما على المثقفين فى المطلق مادام الكيان الغاصب قائما، حتى لو طبعت كل الدول العربية والإسلامية والعالم أجمع. ولابد من اكتشاف آلية لإفهام «المثقف» اليهودى فى إسرائيل بأنه يمارس اغتصابا لحقوق الآخر مادام يرضى ببقائه فوق الأرض الفلسطينية مساندا ومرسخا استمرار الكيان الإسرائيلى.

( د ) المشكلة ليست فى عقيدة المتدين اليهودى بأنه ينتمى إلى شعب الله المختار، أو فى المسلم الذى يعتقد بأنه خير أمة أخرجت للناس كما أشار الدكتور ميلاد حنا: فهذا أمر طبيعى وقابل للتحمل فى إطار الخصوصيات الثقافية، والحضارية، والدينية ما لم يتحول إلى نظرية استعمارية، أو إملائية، أو استعلائية، أو توسعية عنصرية. فمن حق أى كان - بل ربما كان هذا الحق جزءا من إغناء الحوار وثرائه - أن يتعصب لأهله، وقومه، وعشيرته، ومذهبه، ودينه بشرط ألا يكون على حساب الآخر.

المحصلة: لابد من فصل نظرية «قبول الآخر» عن السياسة والسياسيين واعتبارها مسألة ثقافية فكرية حضارية، يتم التعامل معها بعيدا عن الشأن السياسى القائم على المصالح المؤقتة والطارئة. ولابد أيضا من تعميم ثقافة تحمل الآخر، والتعايش معه، والدفاع عن حقه فى التعبير عن نفسه مادام يلتزم بقانون التعايش والحوار. كما ينبغى إفهام الحكومات أيا كانت فى الوطن العربى والإسلامى أو خارجه بأن رسالة

المثقف ليست المدح والثناء والتمجيد والتطبيل والتزمير للحاكم ولأرباب السيف وأصحاب السلطة أبدا. إن رسالة المثقف الحقيقى تكمن فى توسيع المدارك العقلية والعاطفية للبشرية جمعاء، وإيجاد التوازن والتعادل بين القلب والعقل والتنبيه لاحتياجات البشر الطامع نحو الكمال على كل المستويات. ولابد للحاكم، أى حاكم، أن يدرك بأنه طارئ ومؤقت مهما طال أمد حكمه، ذلك لأن الدار والوطن والدولة والقطر والبلاد ستظل لأهلها، من أبناء الرأى العام، أصحاب الحق الحقيقيين فى الحكم، وفى مقدمتهم المثقفون، وأن الحاكم إنما يحكم باسمهم لفترة بصورة اعتبارية، ولا أصالة إلا لأهل الدار، وخير من يمثل أهل الدار، ويعبر عن مشاعرهم وإحساسهم واحتياجاتهم، هم المثقفون، أو هكذا ينبغى أن يكونوا، وأن من واجب الحكام أن يرجعوا إلى المثقفين لفهم أوضاع البلاد، وعندها نقول نعم الحكام، ونعم المثقفين، وأوضاع أهل الدار، لأن المثقفين سيضطرون فى غير ذلك إلى مراجعة الحكام، وعند ذلك فبئس المثقفين وبئس الحكام.

وملاحظة أخيرة للحكام قد تفيدهم فى حيوية حكمهم وإدامته لبعض الوقت لمصلحة الأمة، وهى أن فن أى حكومة وعظمتها ونجاحها لا يكمن فى قدرتها على قمع أو إسكات الرأى الآخر بالقوة والسيف، بل فى قدرتها على معايشة واستيعاب وتحمل الآخر باقتدار.

وأخيرا وليس آخرا فى هذا السياق أيضا، ولكن على المستوى العالمى، فإن المطلوب منا كمثقفين عرب مسلمين ألا ننبهر بالآخر أو نستسلم له أو نذوب فيه، كما لا ينبغى أن نرفضه أو نقاطعه أو ننفيه من ذاكرتنا وتعاملنا، بل هو أمر بين أمرين، أن نعترف ونقر بحقه فى الوجود

والتعبير عن ذاته كما هو لا كما نشتهيه، وأن نقتبس منه ما يفيد، على أن نتمسك بجذورنا وأصالتنا، أى نمزج بفعالية وحيوية بين التراث والأصالة، بين الجذور والفروع والأغصان، والتى هى بالمناسبة من نتاج البشرية كلها، وملك لها، بعيدا عن كل أنواع الاختيارية، أو السلالية، أو العنصرية، وذلك فى حوار مفتوح ودائم بين الثقافات والحضارات.

ولا بأس فى الخاتمة من هذا التعقيب الذي أطلته عليكم. وبعد المعذرة من جميع المستمعين وشكرهم على صبرهم رغبت أن أنهيه بهذه الأبيات العربية التي تدعو إلى التعرف على الآخر والاستئناس به منذ القدم حيث يقول الشاعر:

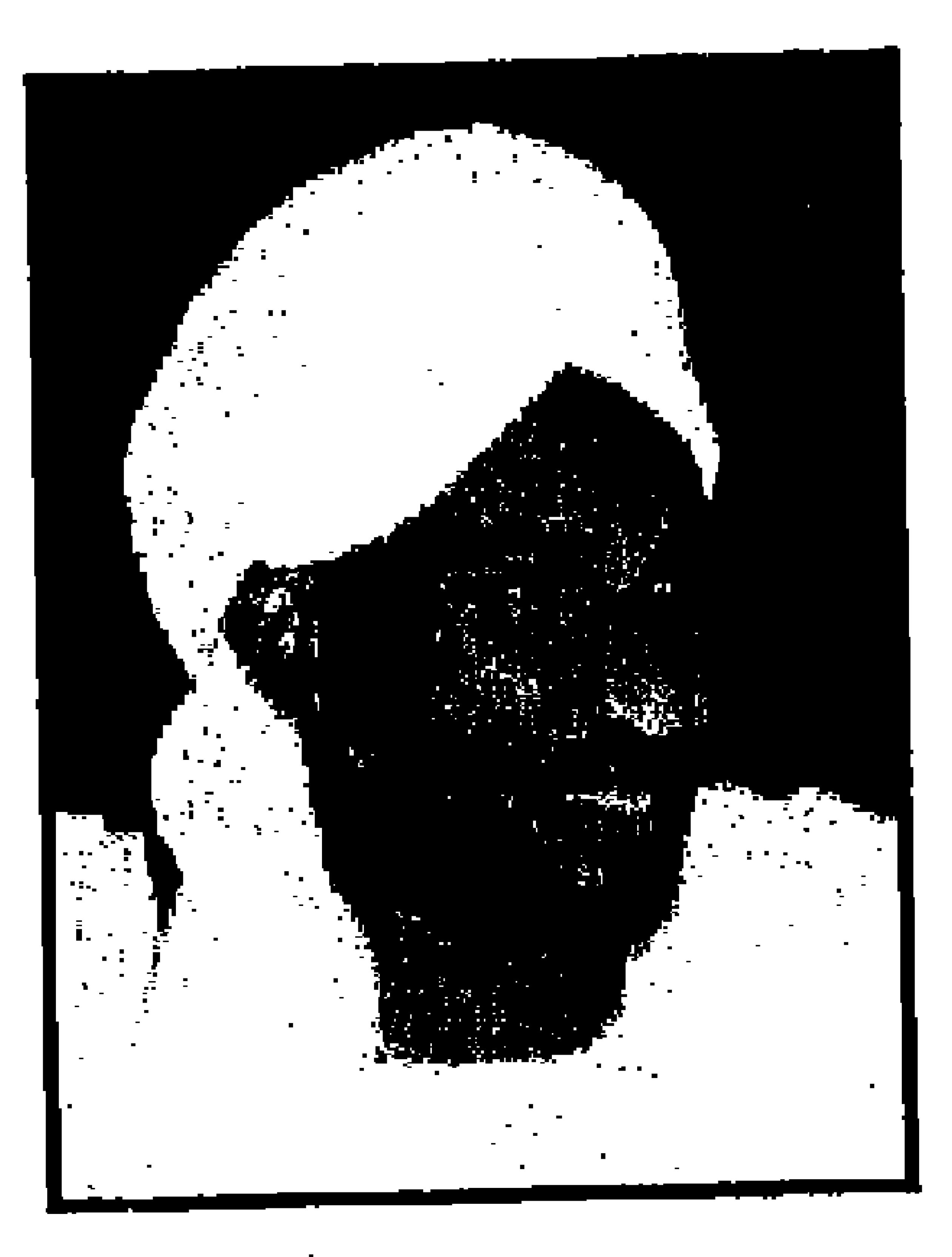
تغرب عن الأوطان فى طلب العلا
وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
فتفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

أو كما قال الشاعر الكبير أبو تمام:

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجة به فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
لدى الناس أن ليست عليهم بسرمد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *



# نــداء المهتديــن

لصاحب العهد لأنصار الله

الصادق المهدى

- رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦
- زعيم حزب الأمة السودانى
- كتـب هذا النـداء إلى المـهتدين (أى أتبـاع دعـاة المهديــة) باعتباره: «صاحب العهد لأنصار الله».

## تقديم نداء المهتدين فى هذا الكتاب:

فى أول أيام عيد الأضحى المبارك والذى توافق مع يوم السبت ٢٧ مارس عام ١٩٩٩ اصطحبت صديقى المهدى توفيق بيومى - الأمين العام لأسرة وادى النيل - وهى جمعيه أهليه تشكلت بمصر عام ١٩٩٦، وتضم نخبة من صفوة رجالات مصر والسودان، لكى يسترجعوا دعوة قديمة عايشوها هى «وحده وادى النيل»، أقول، ذهبًا معا لزيارة كل من مولانا السيد محمد عثمان المرغنى - زعيم طائفة الخاتمة، ورئيس الحزب الاتحادى الديمقراطى بقصره بشارع الخرطوم بحى مصر الجديدة وبعدها توجهنا سويا لتقديم التهانى بالعيد للسيد/ الصادق المهدى، والذى يعيش فى شقة بسيطة عادية داخل عمارة سكنية جديدة فى أطراف مدينة نصر، فالمؤكد أنه يدرك أن مكانة داخله، ولذا فإن لقاءتنا حول قضايا ثقافية تمتد لوقت طويل لأنها - فى معظمها - حول الفكر العربى والعالمى وصولا إلى الثقافة الدينية على أنواعها وعندما تقاربنا - بعد أن اتخذ من القاهرة مقرا له بعد هروبه من بطش حكومة «الإنقاذ» فى حينها منذ عدة سنوات، ولكن السياسة تتغير مع الزمن فتتغير العلاقات الإنسانية بالتالى وكنت أمزح معه؛ بأنه رجل فكر يتجاوز أى منصب سياسى، على الرغم من أنه شغل بالفعل أعلى منصب منتخب فى السودان وهو رئيس وزارة السودان بعد أن خاض عام ١٩٨٦ - بنجاح مؤكد - معركة الانتخابات باعتباره زعيم ورئيس حزب الأمة السودانى.

وخلال الحوار، تطرق الحديث عن كتاب صموئيل هانتجتون والذى يتنبأ فيه بأن الحقبة الحالية والقادمة محكومة بمجتمع الصدام بين الحضارات وفى مقدمتها احتدام الصراع بين الغرب والإسلام.

وكان أن قدمت له فى هذا اللقاء مؤلفى «قبول الآخر» وشرحت كيف أننا فى «الشرق» لنا تراثنا فى تفهم «الآخر» والمعايشة معه، وتحاورنا أيضا حول فكرة كتابى الأقدم (١٩٨٩) «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» وكيف أن التركيبة الإنسانية الثقافية للمصرى متأثرة بتاريخ مصر ورقائق حضاراته الأربعة وهى: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام (وهذه الرقيقة الخالية بها عدة رقائق داخلة)، كما هى (أى الهوية المصرية) متأثرة بالجغرافيا أى بالموقع، ومن ثم فإن المصرى عربى ثقافة ووجودا لأن مصر قلب العالم العربى، ثم هى مطلة على البحر المتوسط وفى نهاية المطاف فإن العامود السابع هو انتماء مصر إلى أفريقيا.

ثم تطرق الحديث إلى الإسلام ومدى ملاءمة بعض مفاهيمه التراثية إلى العصر، وأثر كل ذلك على الصراع الدموى الذى يدور فى السودان، فكان أن قام الصادق المهدى، وأحضر لى هذه الدراسة التى كتبها باعتباره «صاحب العهد لأنصار الله» وقد أعطاها عنوان «نداء المهتدين» وقد فهمت منه أن له دراسة أخرى بعنوان «نداء المؤمنين» وتفتح حوارا مع المسيحية فلم أعجب أن كان بيانه فى جيبوتى مع الفريق عمر البشير فى ١٩٩٩/١١/٢٥ بعنوان «نداء الوطن» فهو يهوى أن تكون كتاباته جملة نداءات فكرية.

وعندما عكفت على قراءة هذا النداء، وجدت فيها ما كنت أبغيه، فلا يستطيع - إلا مكابر - أن يزايد على الصادق المهدى فى أنه مسلم متعمق فى دراسة الفقه والسنة والتراث، وفوق ذلك لديه حنكة فى دنيا

السياسة بما فيها من كر وفر وهرب، اكسبه ربط التراث بالفكر العالمى عبر النصف الثانى من القرن العشرين فعاصر استقلال السودان عام ١٩٥٦ ثم انتخابات وانقلابات وحروب أهلية بين الشمال والجنوب وكان أنواع الصراعات بسبب اختلاف العرق والدين والجهة (أى الموقع الجغرافى) ومن ثم جاء ندائه إلى أتباعه المهتدين تحمل رؤية جديدة تناسب العصر.

وربما كان الجزء الذى يهدفى هو ذاك الخاص بـ «الحقائق الجديدة» أى تلك المفاهيم «المعاصرة» التى نشأت حتى صارت جزءا من ثقافة القرن العشرين وربطها بالتراث ومن ثم فهو مجدد مجتهد (له أجران) وهذه الحقائق السبعة هى: الوطنية - القومية - العولمة - الوحدة الإسلامية - التعددية الاجتهادية - الحركة فى الشريعة التحول السياسى، وسيتعرف عليها القارئ من خلال الورقة ذاتها.

وهكذا أعجبتنى دراسة ونهج الصادق المهدى، وما أن حانت الفرحة لأن أنشر كتابى عن «المثقف والآخر» حتى وجدتها تضمنه مفاهيم «قبول الآخر» فكان «نداء المهتدين» إضافة فكرية طيبة، زادت الكتاب ثراءً وانفتاحا.

ولأن السودان يمر حاليا بمرحلة تاريخية مفصلية، ولأن الصادق المهدى أصبح أحد رموز التغيير لأنه حامل لفكر «قبول الآخر» المدعم بأسانيد ومرجعيات ذات جذور تراثية، لذلك صار منشغلا بالحاضر المتحرك لكى يصيغ «سودانا جديدا»، يضع فيه الأفكار والنداءات موضع لتنفيذ، ومن ثم لم أستطع أن أحصل على الموافقة المباشرة لنشر هذا

النداء ضمن هذا الكتاب فهو كثير الترحال من جيبوتى إلى كامبالا إلى طرابلس إلى جينيف ليجرى حوارات فكرية فى الكواليس تصاغ فى توجهات سياسية لها مردودها مع الواقع فيكون الانصهار الوطنى وهو ما يحتاج له السودان بشدة اتصلت بأحد معاونيه المقربين منه وهو الصديق د.إبراهيم الأمين - الطبيب والمناضل والمفكر والوزير السابق فى حكومة الصادق المهدى عام ١٩٨٦ فكان أن سعد ورحب بأن تكون ورقة «نداء المهتدين» متاحة للقارئ المصرى من خلال مجلة «اقرأ» والتى أصبحت من أكثر الدوريات انتشارا لتقديم كل ما هو جديد وكل ما يثير الحوار ويثريه.

**ميلاد حنا**

١٤ / ١٢ / ١٩٩٩

# نداء المهتدين

## لصاحب العهد لأنصار الله

## الصادق المهدى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

قال تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[1].

منذ أن أشرق نور الرسالة الإسلامية سطرت سيرة الإسلام صلاحا ونجاحا وفلاحا لم يعهد تاريخ البشرية لها مثيلا. لقد أسس الإسلام دينا عالميا مازال يتمدد فى كل أجزاء العالم، وأسس المسلمون حضارة استصبحت عطاء حضارات الإنسان السابقة وأتت بنسيج وسطى فريد. واستطاعوا أن يؤسسوا كيانات سياسية هيمنت على الربع المعمور من العالم لمدة ألف عام.

ولكن منذ ثلاثة قرون استطاعت الحضارة الغربية أن تستصحب عطاء الحضارات السابقة لا سيما الحضارة الإسلامية، وأن تبدع الحضارة الحديثة التى تفوقت على كافة الحضارات الأخرى وهيمنت عليها. إن الذى أهل الحضارة الغربية الحديثة لذلك التفوق أمران:

---

(١) سورة النحل : [١٢٥] .

الأول : هو أن الحضارة الحاملة للمشعل قبلها: أى الحضارة الإسلامية، قيدها الجمود الفكرى والثقافى، وأضعفها التفرق المذهبى، وأقعدها التخلف الاقتصادى والاجتماعى، وحبسها الاستبداد السياسى فتآكلت وتراجعت حتى صارت كالمستعدة للغزو الأجنبى والاستسلام له.

والثانى : القدرات الذاتية للحضارة الغربية بلغت شأوا عظيما نتيجة لثلاثة عوامل:

(١) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى والتكنولوجى.

(٢) تأسيس نظام سياسى يقيم الحكم على رضا المحكومين ويعرض الحكام لمحاسبتهم عبر مؤسسات مقننة ويحقق أمرين هامين هما:

( أ ) التداول السلمى للسلطة عبر مؤسسات دستورية.

(ب) تقنين الوظيفة العسكرية وإخضاعها للشرعية الدستورية.

(٣) تأسيس نظام اقتصادى حقق جدوى استثمارية وإنتاجية عالية عن طريق الاستغلال الفعال لتطور العلم والتكنولوجيا وآلية السوق الحر.

هذه العوامل مكنت الحضارة الغربية الحديثة أن تقيم نظما سياسية مستقرة ومتطورة، وان تقيم نظما اقتصادية منتجة ومحققة لأعلى درجة من التبادل التجارى الداخلى والخارجى وأن تبنى قوات مسلحة محصورة فى أداء وظيفتها العسكرية عالية الكفاءة القتالية والتنظيمية. واستطاعت الحضارة الغربية الحديثة أن تكتسب قوة سياسية واقتصادية وعسكرية مكنتها من فرض هيمنتها على سائر أنحاء العالم.

أثناء القرون الثلاثة الماضية وضعت الحضارة الغربية الحديثة المهيمنة الحضارات والبلدان الأخرى أمام واحد من ثلاثة خيارات:

( أ ) رفض الحضارة الغربية ومقاومتها وبناء الحياة على أساس مستقل عنها.

(ب) الامتثال للحضارة الغربية باعتبارها تمثل مستقبل الإنسان المحتوم وبناء الحياة على أساس التشبه بها.

(جـ) اتخاذ موقف وسط يحافظ على الهوية الثقافية والحضارية ويقبل التحديث ويفرق بين المقومات الذاتية للحضارة الغربية وبين الحداثة.

لقد أخذ بالخيار الأول دعوات وحركات وثورات عديدة فى العالم الإسلامى هدفها بناء الحاضر على بعث الماضى واستلهام إنجازاته ومقاومة ورفض الحضارة الغربية بحذافيرها. هذه المواقف حققت فى كثير من البلدان بطولات ونجاحا مؤقتا ولكنها فى النهاية تهاوت أمام القوة الاقتصادية والآلة العسكرية الغربية.

كانت الدعوة المهدية فى السودان أنجح مواقف التصدى للهيمنة الغربية فى القرن التاسع عشر الميلادى. وكان تصديها وبطولاتها مضرب الأمثال فى الشجاعة والإقدام، ولكن الكيان السياسى الذى أقامته الدعوة المهدية بعد صموده لأكثر من عقد من الزمان تصدع أمام الآلة العسكرية الحديثة.

أما الخيار النقيض، الثانى، فقد أخذ به آخرون لاسيما فى آسيا الوسطى وفى الجزائر الفرنسية وفى تركيا الكمالية. هذه المحاولات مع ما توافر لها من أسباب التمكين تراجعت أمام دعوات التأصيل الدينى والحضارى والثقافى.

واقع الحال الآن هو أن البلدان التى تمت فيها محاولات البعث الماضوى المحض تشهد انفتاحا عصريًا. والبلدان التى تمت فيها محاولات انخراط فى الحضارة الغربية تشهد بعثا تأصيليا. هذا معناه أن النهج الأفضل والأجدى هو التزام التأصيل دون انكفاء والتحديث دون تبعية.

## إن علاقة الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية معقدة لأسباب أهمها:

١ - الحضارة الإسلامية تكمن فيها تيارات مشدودة إلى نجاحها القديم لدرجة تظن أن استنساخ ما حدث تاريخيا ممكن. هؤلاء يسقطون نجاح الماضي على الحاضر فيشلون حركته. هؤلاء يعتقدون أن التعامل المشروع مع الأديان الأخرى والحضارات الأخرى هو ذلك التعامل الذى يقاس على سابقه فى الماضى ولا مشروعية لأية معاملات تقوم على أنماط مختلفة.

٢ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارة الإسلامية بدرجة عالية من الذعر لأنها الحضارة الوحيدة التى كادت تمتصها بسبب تفوقها الفكرى والتكنولوجى والثقافى عليها. كما كانت الحضارة الوحيدة التى هددت الحضارة الغربية فى وجودها اكثر من مرة. لذلك صار التخوف من الإسلام والمسلمين شيئا عاديا فى كثير من النفوس الغربية.

٣ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارات الأخرى بدرجة كبيرة من التعالى وافتراض الدونية. وكان تعاملها مع المسلمين ظالما مهينا

غدارا لم يراعوا فيهم إلاها ولا ذمة. لذلك صار بغض الغرب وأهله قريبا من نفوس كثير من المسلمين.

٤ - إن إصرار الغرب على التعامل مع الحضارات الأخرى بالتعالى ومع المسلمين بالظلم يغذى مشاعر الكراهية والتنافر فى الطرفين ويوقد تيارات التشدد والمواجهة فيهما مما يسوق العالم إلى فترة صدام ظلامية. آتية حتما ما لم تهزم الحضارة الغربية نزعات التعالى والظلم فيها، وتنتهج - وهى فى موقف القوة والهيمنة الحالية - نهجا ذا خمس شعب:

● الاعتراف بأن الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة ساهمت فى تكوينها كل حضارات الإنسان السابقة لاسيما الحضارة الإسلامية.

● الاعتراف بأن الحضارات الإنسانية والثقافات الأخرى لها دورها فى بناء حاضر ومستقبل الإنسانية، ولا يجوز التعامل معها ككائنات منقرضة أو فى طريقها للانقراض الوشيك.

● التسليم بأن منجزات الحضارة الغربية الحديثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية الصالحة لاستصحاب البشر لها فى كافة البلدان، سيتم استصحابها برؤية ذاتية بالإكراه، والرؤية الذاتية هذه تشتمل على أقلمة ثقافية واجتماعية تحددها الشعوب المعنية باختيارها.

● إن الغرب قد كان سببا أساسيا فى تكوين عدد من بؤر النزاع الساخنة، ومهما كانت مسئولية الأطراف المحلية عن استمرار تلك البؤر

الملتهبة فإن اعتراف الغرب بدوره في تكوينها واستعداده للقيام بدور تكفيرى فى علاجها أمر هام وعتبة نحو علاقات دولية سليمة وسوية. أهم تلك البؤر هى:

( أ ) قضية الحق الفلسطينى المغصوب وقيام دولة إسرائيل على حسابه.

(ب) قضية كشمير وأهلها كشعب متطلع لتقرير مصيره.

(جـ) مسألة جنوب السودان وما كان من أمر سياسة الاستعمار لتطوير الجنوب على أساس مناقض لما فى الشمال ثم عكس تلك السياسة فى فترة زمانية لم تكف لتكريس الاتجاه الجديد.

● إن للغرب الاستعمارى مسئولية فى تخلف البلدان التى وقعت تحت نير الاستعمار. صحيح أن للقيادات الوطنية التى حكمت هذه البلدان بعد استقلالها مسئولية فى الإبقاء على التخلف. لكن يتبقى أن نعترف أن النظام العالمى السياسى والاستراتيجى الذى قام بعد الحرب العالمية الثانية كان نظاما بالنسبة لدول الجنوب - والعالم الإسلامى جزء منه - غير متكافئ.

والآن إن تحرير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين عالم الجنوب أى جنوب الكرة الأرضية المتخلف، وعالم الشمال المتقدم، وحصول عالم الشمال على أهم أسباب الرقى والتقدم سوف يؤدى إلى اتساع فجوة التنمية بين نصفى الكرة الأرضية بل إن هذا الوضع غير المتكافئ - بالإضافة إلى تقصير كثير من قيادات عالم الجنوب - سوف يؤدى إلى

تهميش الجزء الأكبر من عالم الجنوب. هذا التهميش سوف يؤدى حتما إلى التظلم، والغبن، والاحتجاج.

ينبغى أن يهتم عالم الشمال كقيادة فعلية للأسرة الدولية اهتماما خاصا بالتنمية فى عالم الجنوب لأسباب كثيرة أهمها:

( أ ) أسباب سياسية. فالاحتجاج والتظلم لا يمكن حصره فى عالم الجنوب بل سوف يتعداه إلى الشمال عبر عدد من وسائل الاحتجاج نسميها أسلحة الدمار الشامل، ونذكر منها تكوين مصادر مستمرة لحركات الإرهاب الذى يمكن أن يسمى نفسه أسماء عديدة ولكنه فى النهاية احتجاج سياسى يتخذ العنف أسلوبا.

(ب) القنبلة السكانية التى يمكن أن تنفجر فى عالم الجنوب وتكون لها آثار سلبية فى كافة أنحاء العالم.

(جـ) القنبلة الأيكولوجية. إن تصرف أى جماعة أو دولة فى العالم بطريقة غير مسئولة نحو البيئة والطبيعة سيكون له آثاره السلبية العامة.

( د ) قنبلة المخدرات. ضبط التعامل مع المخدرات إنتاجا وتوزيعا أمر مهم ولا يمكن تحقيقه إلا على أساس دولى حازم.

(هـ) القنبلة الصحية. إن العالم يشكل بيئة صحية واحدة، وإن علاج الأوبئة والوقاية من المخاطر الصحية يتطلبان مشروعا صحيا عالميا.

( و ) الهجرة غير القانونية . هذه الظاهرة سوف تستمر وتتصاعد ما لم تعالج أسبابها الأساسية. وعالم الشمال لا يستطيع أن يتعامل معها

كظاهرة أمنية فحسب وإن حاول ذلك فلا يحقق نجاحا جزئيا إلا على حساب إلغاء الحريات العامة في مجتمعاته ! !.

.. ذلك النهج الغربى المطلوب يشكل لنا بيئة خارجية صالحة. ولكن الأهم منها أن نقف نحن المسلمين وقفة صدق مع الذات نحاسب أنفسنا ونحسب خطانا لأن تجديد دورنا الفعال فى الحياة يبدأ بصحوة ذاتية.

يجب أن نعترف أننا استقبلنا وحيا هو الأوثق لأن الكتب الأخرى لم تدون على نحو ما حدث للقرآن الكريم. كذلك كان نبينا **هو الأكثر تاريخية بالقياس للرسل الآخرين الذين محت الأيام أكثر تفاصيل سيرتهم للسنّة اللهم إلا ما دون منها فى القرآن الكريم.**

هذه الحقائق الناصعة حبسنا بها أنفسنا فى الماضى دون مبرر دينى صحيح. الملزم لنا بموجب عقيدتنا هو القطعى ورودا والقطعى دلالة من النصوص الإسلامية. لكننا ألزمنا أنفسنا بتفاسير للقرآن، وبدونات للسنّة؛ وباستنباطات فى الفقه، وبروايات للسيرة جعلناها ملزمة لحاضرنا ومستقبلنا فألبسنا الفكر والثقافة والحياة قميص حديد ماضويا. إن فى شريعة الإسلام ما هو ثابت ومتحرك. وإن من مقاصدها التوفيق بين حقائق الوحي والعقل. ولكن إلزام أنفسنا بتلك التفاسير والاستنباطات والروايات يلحق اجتهادات عقول الأقدمين بحقائق الوحى، ويلحق المتحرك من أحكام الشريعة بالثابت وهذا معناه إلغاء دور العقل وإلغاء هامش حركة الخلف. إن فى هذا تضييقا لواسع وتبديدا لمقاصد الشريعة.

الإسلام رسالة خاتمة خاطبت الإنسانية فى مرحلة نضجها، وكلفتها بالاجتهاد فى كل ما ليس قطعى الورود وقطعى الدلالة، إن على أمة

الرسالة الإسلامية واجبا نجاحها فى أدائه يؤهلها لقوله تعالى: : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..** ﴾ الآية (١١٠ — آل عمران). وإخفاقها فى أدائه هو السبب المباشر لما تعانى منه اليوم من انحطاط إنها معاناة سوف تستمر ما بقيت أسبابها، ولا يخرجنا منها إلا جهدنا واجتهادنا ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ الآية (١٣ — الرعد).

## إننا ونحن نستقبل القرن الميلادى الجديد نشاهد بوضوح:

١ – الإسلام الديانة، الذى فصلته حقائق الوحى وأحكامه ثابتة، لا ينفك يعمق فى النفوس وفي التربية. ولا ينفك يتسع انتشارا بصورة جعلته حتى يومنا هذا الدين الأوسع انتشارا فى كل قارات العالم.

٢ – الإسلام الحضارة – أى ديوان الحوار بين المسلمين والحضارات الأخرى والمجتمع والتاريخ – كون حضارة عالمية متفردة يزيد تقديرها يوما بعد يوم.

٣ – لكن مع أن الإسلام كأساس للنظام الاجتماعى مشتمل على أرفع المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأكثرها تفوقا على أفضل ما أفضى إليه التقدم الإنسانى فى المجال الاجتماعى.. مع ذلك كله، فإن المسلمين اليوم يعيشون واقعا اجتماعيا سيئا. الشعوب الإسلامية هى الأكثر ضحية للجمود الفكرى والثقافى فى العالم، وبالتالى هى الأكثر تخلفا اقتصاديا وسوء توزيع للثروة والدخل. وهى الأكثر تعرضا للهيمنة الأخيبية. والسبب واضح: دور العقل فى التفسير والاستنباط وتحليل

الروايات، ودوره فى التعامل مع الجوانب المتحركة من الشريعة دور هـام فى مجال المعاملات. أى فى المجال الاجتماعى، إنه دور يقع التكليف به على الأمة وتعطيله يدل على تقصير الأمة فى القيـام بواجبـها ويؤدى إلى ما أدى إليه من واقع اجتماعى كريه.

## « يا أهل القبلة تعالوا إلى كلمة سواء بيننا »

**أولا :** إننا كتابنا واحد معلوم ومحفوظ النـص، ورسـولنا واحـد معلـوم السيرة والهوية. هذه من نعم الله علينا. كتاب الله وسـنة رسـول الله بين أيدينا. علينا أن نؤمن تماما بأن ما نلتزم بـه هـو القطعـى ورودا والقطعـى دلالة من الكتاب والسنة. أما الظنى ورودا والظنى دلالة وما ليس فيه نص أصلا فأمور اجتهادية غير ملزمة لنا.

**ثانيا :** التعـامل مـع الآخـر المذهبـى الإسـلامى يجـب أن يقـوم علـى الإيمان المشترك بالقطعيات والاعتراف المتبادل بالاجتهادات علـى أسـاس أن التقليد فـى الاجتـهادات غـير ملـزم وأن القـاعدة السـنية مـن اجتـهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فاخطأ فله أجر واحد.

**ثالثا :** هنالك عوامل مستجدة اختلف المسـلمون حـول كيفيـة التعـامل معها :

- أهـل السـنة قـالوا بالتعـامل مـع المسـتجدات علـى أسـاس القيـاس والإجماع.
- الشيعة قالوا بمعرفة خاصـة للأئمة ولمراجـع التقليـد فـى غيابـهم. هؤلاء يفتون فى أمر المستجدات.

● الصوفية قالوا بأن الصالحين ملهمون مكشوف لهم الحجاب مما يتيح لهم معرفة خاصة للتعامل مع كل الأمور وعلى الآخرين اتباعهم.

لقد جادل المسلمون كثيرا حول تلك الأساليب، فمن قائل أن القياس غير صحيح، لأنه لا تكون حالة مثل حالة أبدا، وقائل أن الإجماع في أمر من الأمور غير القطعية لم يقع أبدأ، وقائل أن الأئمة المعنيين لم يوجدوا أصلا، وأن القول بالكشف مختلف عليه، وغيرها من مقالات الإسلاميين، إن عصرنا الحالى يمتاز بإلغاء المكان عن طريق المواصلات، وإلغاء الزمان عن طرق الاتصالات مما يتيح لنا وسائل أفضل في التعامل مع هذه القضايا. الأسلوب الأمثل هو تحديد هيئة أو هيئات فنية ذات معرفة وتخصص في كل المجالات ذات دور استشارى. واتخاذ هيئة أو هيئات تشريعية ذات تفويض شعبى للتداول بشأن المستجدات واتخاذ قرار بشأنها.

**رابعا : ينبغى أن نحدد أساسا واضحا للتعامل مع الآخر الملى في أوطاننا. إنهم وجدوا معنا في هذه الأوطان واستمروا فيها باختيارهم، وإن هذا الموقف أكسبهم موقف أهل العهد – عهد المواطنة – وإن نحن سحبنا منهم هذا الحق فإنهم في نطاق القانون الدولى المعاصر سوف يسعون إلى حق تقرير المصير.** إن عهد المواطنة يقتضى الاتفاق على حد أدنى من الحقوق لكل المجموعات الوطنية، وإلا دفعناهم دفعا نحو العمل لتقرير المصير ومن ثم التمزق الحتمى. علينا إذن أن نقر عهد المواطنة وحق المواطنة كأساس للكيان الوطنى، **فالوطن لكل سكانه بموجب عهد**

المواطنة، ولكن هذا لا يتعارض مع الحقوق الدينية والثقافية للمجموعات الوطنية المختلفة ما دامت لا تطالب بوضع ينتقص من حقوق المجموعات الأخرى.

إن الشريعة الإسلامية واجبة التطبيق للمسلم، وعلينا أن نضع ميثاقا واضحا يوفق بين حق المسلمين فى تطبيق الشريعة الإسلامية، وحقوق المواطنة للآخرين. وعلينا أن نعلن بوضوح التزامنا الأساسى بأن التعامل بيننا وبين أهل الملل الأخرى يقوم على مبدأين أساسيين هما: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ الآية (٢٥٦ — البقرة) ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ الآية (١٢٥ — النحل).

خامسا : النظام الدولى الحالى يقوم على أساس العهد الذى يقوم عليه نظام الأمم المتحدة. إنه نظام بالنسبة للمسلمين يعتمد على مرجعية إسلامية أساسية هى: ﴿ وأفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا...﴾ الآية (٣٤ — الإسراء). ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ..﴾ الآية (٨ — الممتحنة).

إن النظام الدولى المعاصر لم ينشأ من فراغ. لقد كانت بداياته مستمدة من مفاهيم المعاهدة والائتمان، ومعاملة الأسرى، والعلاقات بين الكيانات السياسية الدولية التى خطها المسلمون استنباطا من مبادئ وأحكام الإسلام، وتسربت إلى أوروبا عبر الأندلس وصقلية وجنوب

إيطاليا، وقديما قال بلاسكو ايباريز في كتابه «تحت ظلال الكاتدرائية»: «إن إحياء أسبانيا لم يأت من الشمال بل من وسط مع العرب الفاتحين».

نعم .. إن النظام الدولى الحالى أقيم في غياب كثير من البلدان الإسلامية.

نعم .. إن فيه نقصا يفتقر إلى تصحيح وتصويب لتكتمل عدالته. وهذا ما ينبغى أن نسعى إليه ونحققه.

سادسا : هنالك منجزات حققها الغرب لا تتعارض مع أصول مبادئنا الإسلامية، ولكن الفضل في تحقيقها وتكوين مؤسسات لاستدامتها يرجع للحضارة الغربية في المقام الأول. تلك المنجزات ينبغى أن نستصحبها دون أدنى حرج، وأن نحدد مرابطها في مقاصد الشريعة الإسلامية:

( أ ) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمي والتكنولوجي.

(ب) النظام السياسى الذى يقوم على رضا المحكومين ومساءلة الحكام وتحقق التداول السلمي للسلطة والخضوع العسكرى للشرعية الدستورية.

(جـ) النظام الاقتصادى الذى يقوم على آلية السوق الحر لاسيما في مجال الاستثمار والإنتاج والتبادل التجارى.

( د ) الالتزام بحقوق الإنسان على أساس أن الله كرمه وأوجب له حقوقا مقدسة. إن حقوق الإنسان التى جاء بها الإسلام تتكامل ولا تتناقض مع حقوق الإنسان العالمية على نحو ما أوضحنا بالتفصيل.

وحقوق الإنسان فى الإسلام تمتاز على غيرها لأنها تستمد من جذور روحية وخلقية وتستوجب جزاءا أخرويا.

(هـ) لقد دار فى مسألة المرأة جدل كبير. المرأة هى الوالدة والزوجة والأخت والبنت للرجل، والنساء فى مفهوم الإسلام شقائق الرجال. والنصوص الإسلامية واضحة فى مساواتها إنسانيا وإيمانيا.

**﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ﴾** الآية (١٣ — الحجرات).

**﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض.. ﴾** الآية (١٩٥ — آل عمران).

**﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. ﴾** الآية (٧١ — **التوبة**).

هذه المساواة بين الرجل والمرأة حددها أمران: **الأول:** فطرى وهو أن للرجل والمرأة فى أمر التوالد والأسرة وظيفتين مختلفتين متكاملتين. هنالك أحكام تتعلق بهذا الاختلاف لا مفر منها بل هى واجب تقتضيه الفطرة. المهم ألا يكون هذا مدخلا للتفاضل بل للتكامل. **الأمر الثانى:** أحكام واستنباطات لحقت بالمرأة بسبب ظروف فكرية وثقافية واجتماعية مقدرة فى زمانها ولكنها الآن تجاوزتها الظروف.

إن حقوق المرأة فى الإسلام كانت طفرة تحريرية فى ظروفها. أما الآن فإن حقوق المرأة العالمية قد بلغت مرحلة متطورة. التحدى الذى يواجهنا هو هل تستطيع المرأة أن تكون مسلمة وحديثة فى آن؟ الجواب: نعم.

سابعا : الجهاد هو ذروة سنام الإسلام. والجهاد هو رهبانية أمة محمد ﷺ والجهاد ماض إلى قيام الساعة. إن مادة جهد هى أساس الصلاح والفلاح والنجاح فى كل مجالات الحياة. ولا يفلح الإنسان فى أية حالة إذا لم يبذل الجهد: لابد لنيل الشهد من إبر النحل. الجهاد فى هداية الإسلام هو بذل الجهد كله للالتزام بأمر الله. إنه يبدأ دائما بإلزام النفس على الفضيلة، وهذا هو الجهاد الأكبر لأن فاقد الشىء لا يعطيه.

ثم يتجاوز الإنسان نفسه إلى أسرته وإلى مجتمعه وعليه بذل الجهد كله وبكل الوسائل للالتزام بهدى الله، هذا الالتزام يصير التزاما قتاليا فى حالة فتنة الناس عن دينهم أى إكراههم على الخروج من دينهم. وفى حالة الدفاع عن النفس. أى دفاعا عن العقيدة ودفاعا عن الحياة ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ الآية (٣٩ — الحج).

إن اتحاد الفهم بين كافة أهل القبلة حول هذه النقاط السبع واجب إسلامى.

## الحقائق الجديدة

هنالك سبع حقائق جديدة فى عالم لم يسبق للفكر الإسلامى أن حدد موقفا بشأنها. إنها حقائق ينبغى أن نحدد نحوها مواقف واضحة هى:

### أولا: الوطنية:

الوطنية والدولة القومية المترتبة عليها شكل سياسى جديد اتخذته الكيانات الأوروبية منذ صلح وستيفاليا فى ١٦٤٨ م وصارت الوحدة المعتمدة فى العلاقات الدولية.

لقد عرف الإسلام رابطة الأسرة. ورابطة القبيلة. ورابطة الإقليم أو الجهة.. لكن الوطنية تقوم على أساس ثقافة معينة، وتاريخ، وتجارب تكوّن شعبا مرتبطا بأرض معينة. المواطنة هى الرابطة التى تجمع بين شرائح هذا الوطن. إنه تطوير لرابطة الأسرة والعشيرة، يربط بين المجموعات الوطنية والدولة، وله فاعلية فى تنظيم مصالح المواطنين من حيث توافر أسباب المعيشة والأمن.

إن الرابطة الوطنية يمكن أن تكون مفيدة فى سبيل تحقيق التنمية وكفالة سبل المعيشة والأمن، ومع أنها تقوم على مفهوم متشدد على السيادة الوطنية، فإن التعامل مع السيادة بصورة مرنة لتقبل الانتماء إلى كيانات أوسع ممكن ما دام ذلك يتم برضا المواطنين. **لذلك يجب ألا ننظر إلى الانتماء الوطنى بريبة وألا نضعه فى مقابل الولاء للأمة الأكبر، بل نعتبر الانتماء الوطنى صالحا فى حدوده المختارة قابلا للتوسع الاختيارى.**

## ثانيا: القومية:

إن فى الأمة الإسلامية عدة قوميات. والإسلام لم ينف الانتماء القومى بل استصحبه بصورة جعلت العرب يحققون بالإسلام أمجد أيامهم، كذلك حققت القوميات الأخرى الطورانية، والفارسية، والهندية بالإسلام أمجد أيامها وأفضل عطائها.

إن علينا أن نعترف بالانتماء القومى لا سيما على أساس ثقافى ولغوى وسلالى لا يتعارض مع الانتماء الأوسع للأمة إلا إذا كانت فيه عصبية. **العصبية هى الشعور الذى يمقته الإسلام لا القومية.**

## ثالثا : العولمة :

هناك عوامل جديدة فى عالم اليوم هى :

١ – تكنولوجيا المواصلات نفت المسافات وتكونولوجيا الاتصالات كمشت الزمان فصارت أطراف العالم متداخلة وصار كوكب الأرض أقرب إلى حاضرة واحدة .

٢ – المصلحة البيئوية (الأيكولوجية) لكوكب الأرض واحدة مما يوجب التعامل معها كوحدة طبيعية واحدة .

٣ – هناك فضاءات تملكها الإنسانية ملكا مشتركا : الفضاء والبحار والمحيطات والأجزاء غير المأهولة من الكوكب .

٤ – أثناء التسعينيات انعقدت مؤتمرات قمة قاربت بين وجهات النظر حول كثير من القضايا الهامة : السكان – المرأة – النواحى الاجتماعية .. وهلم جرا .

٥ – هناك العديد من الأديان العالمية كالمسيحية والإسلام والبوذية والأديان التي كونت حضارات كالمسيحية والإسلام والهندوسية، والحضارات المتعددة الأديان كالصينية واليابانية والثقافات الإنسانية الكثيرة . **لقد انطلقت حوارات جادة بين أطراف هذه الانتماءات وهي حوارات تصب في خانة تبين القيم المشتركة بينها والتنوع والتعدد فيها . إن هذه الحوارات تتجه لتكوين تصور موحد للتعايش والتسامح الديني والحوار بين الحضارات تجنبا للصدام والخصام .**

٦ – التطور الاقتصادى والتجارى وحركة انتقال الأيدى العاملة والاستثمارات والحركة المالية العالمية تتجه لخلق سوق عالمى واحد .

هذه العوامل الستة هى التى تقف وراء العولمة كظاهرة مرتبطة بتطور الوعى الإنسانى والتاريخ الإنسانى. لكن العولمة تتم فى عالم فيه توزيع غير عادل للسلطة والثروة والقوة العسكرية. لذلك فإن القوة المهيمنة عالميا إنما تلون العولمة بلونها وتحاول إخضاعها لمصالحها الذاتية .

إن علينا أن نقبل العولمة كتطور حتمى لتاريخ الإنسان، وأن نتخذ ما نستطيع من إجراءات علي كافة الأصعدة لكيلا تتحول العولمة إلى امتثال للهيمنة الدولية. هذه معادلة صعبة **ولكن الانكفاء دون العولمة تخلف والامتثال للهيمنة تبعية**، وعلينا أن نحقق الانفتاح نحو العلومة ونتجنب التبعية .

## رابعا : الوحدة الإسلامية :

التطورات العالمية نحو العولمة تزيد من الوعى بالذات الحضارى وبالمصالح الوطنية الإقليمية لذلك نشطت مع العولمة تيارات التكوينات القومية والإقليمية لتحقيق أقصى درجات الانتفاع بالواقع العالمى الجديد وحماية المصالح الخاصة والحماية من الهيمنة .

## ماذا عن الوحدة الإسلامية ؟

الوحدة المتجسدة فى دولة واحدة لم تعد ممكنة فى المستقبل المنظور، إنها اختفت من الواقع الإسلامى منذ نهاية العهد الأموى فى عام ١٥٠هـ **إن مفهوم القيادة العليا الواحدة كما كان متاحا للخليفة لم يعد واردا لأن ضوابط العدالة صارت تقتضى أن يكون رئيس الدولة مختصا بالسلطة التنفيذية، ضمن إطار يحدد مؤسسات السلطة التشريعية والقضائية**، وآليات تبسط للشورى والمشاركة على نطاق واسع عبر مؤسسات المجتمع المدنى والصحافة وآليات البحث العلمى والاجتهاد الفكرى والتطور الثقافى، وهى آليات لها دورها ووزنها ووظيفتها القانونية . **حتى فى إطار دولة قطرية واحدة لم تعد توجد مؤسسة قيادة شاملة مطلقة إلا فى الدولة الاستبدادية .**

إن وجود دولة مختلفة محكومة بنظم دستورية لا يمنع التعامل مع مفهوم السيادة الوطنية بمرونة وتحقيق وحدة فى مجالات عديدة :

١ - فى المجال الروحى والعبادى إذ يمكن للمسلمين الاتفاق على ما يجمع بينهم والتعايش فيما يفرق بينهم على أن يقيموا تنظيما موحدا يقرر بشأن المسائل العقيدية والعبادية ويتخذ تكوينا جماعيا شوريا .

٢ – تكوين محكمة استئناف عليا ذات صلاحيات متفق عليها للحكم فى قضايا معينة .

٣ – برنامج موحد للتعليم الدينى وتعاون فى كافة المجالات التعليمية. برنامج يحقق التعاون فى مجالات معينة ويفسح مجال التنوع .

٤ – تعاون ثقافى وإعلامى.

٥ – تنسيق تنموى وتجارى فى المجال الاقتصادى والتجارى .

٦ – تحديد آليات للحوار الداخلى بين المسلمين وأخرى للحوار مع غيرهم .

إن الإبقاء على تعدد الدول لا يتنافى مع تحقيق درجة عالية من التوحد فى المجالات الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والحضارية لبلوغ درجة من الوحدة الإسلامية وترك المجال مفتوحا للتطوير .

## خامسا : التعددية الاجتهادية :

هناك نظرة سلبية جدا لدينا نحو التعددية فى المسائل الاجتهادية. ينبغى أن تكون نظرتنا لكل أنواع التعددية المذهبية والفكرية الإسلامية إيجابية لأنها إحدى نتائج الحرية اللازمة . على أن نلتزم فى هذا الصدد بأمرين هما :

**الأول** : التسليم بالقطعى ورودا والقطعى دلالة من نصوص الإسلام .

**الثانى** : تجنب التعصب لاجتهادنا الخاص . والتعامل معه بقاعدة اجتهادنا صواب يحتمل الخطأ ، واجتهادكم خطأ يحتمل الصواب. هذه

النظرية المرنة للتعامل المذهبى مع التراث المنقول ومع العطاء الإنسانى ومع الاجتهاد الآخر هو المطلوب لإخراج أنفسنا من الانكفاء ومن التعصب الذميم .

**التعددية فيما عدا وحدانية الذات الإلهية جزء لا يتجزأ من نظام الكون، وينبغى التخلص من النظر إلى فرقة واحدة ناجية فمن كفر مسلما فقد باء بالكفر أحدهما، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وليس من طلب الباطل فأصابه كمن طلب الحق فأخطأه .**

إن الإنسان هو محور رسالة الإسلام لإسعاده فى الدنيا والآخرة . وكل هداية للإنسان ينبغى أن تراعى عوامل الزمان والمكان. الشريعة الإسلامية تفوقت على الملل والنحل الأخرى لاعترافها بالإنسان كإنسان وتكريمها للإنسان كإنسان، ومراعاتها لظروف المكان والزمان .. إن إهدار هذه المعانى إهدار لمقاصد الشريعة . **وللإنسان عشرة مطالب أساسية تفتقر إلى إشباع متوازن هى: المطالب الروحية - الخلقية - العاطفية - المعرفية - المادية - الاجتماعية - البيئية - الجمالية - الرياضية - والترفيهية .**

إن الإسلام دين الفطرة - فطرة الله التى فطر الناس عليها - مستبين لتلك المطالب ولضرورة إشباعها إشباعا موزونا على المسلمين السعى لتحقيقه اجتهاديا فى ظروف الزمان والمكان المختلفة .

## سادسا : الحركة فى الشريعة :

الإسلام عقيدة وشريعة . الشريعة الإسلامية فيها عبادات ثابتة ومفصلة ومعاملات مرنة . منذ عهد الخوارج هناك من جعل أمر السلطة السياسية - الإمرة - كالعبادات - وهذا عين الخطأ الذى وقع فيه الخوارج ومن خلفهم بعد ذلك . علينا أن ندرك بوضوح :

( أ ) أن العبادات مفصلة وثابتة لكن المعاملات معممة ومتحركة .

(ب) الثابت من أحكام الشريعة لا تؤثر فيه عوامل الزمان والمكان . أما المعاملات - أى المتحرك من مقاصد الشريعة فإن الثبات يفسده ويؤدى إلى عكس مقاصده .

(جـ) الأمة باجتهادها المستمر مكلفة بتطوير فقه المعاملات على أساس لكل وقت ومقام ولكل زمان وأوان رجال .

فى ظروف معينة ، وأمام زحف التتار على ديار المسلمين اجتهد بعض الفقهاء ورأوا أن حماية بياض الإسلام توجب تقديس المسئولية السياسية ، وعلى نفس النمط اجتهد الشيخ أبو الأعلى المودودى وصاغ مفهوم الحاكمية لله على نحو تشابه لمقولة الإمرة لله .

إن الذين رأوا باجتهاد معاصر أن يعطوا الإمرة أو القيادة السياسية قدسية تناهز قدسية العقائد والعبادات مهدوا للتطرف الإسلامى المعاصر الذى جعل أصحابه السياسى هو موقف الأمة كل الأمة ونفى رأى الآخرين باعتباره كفرا وخروجا عن ملة الإسلام. هذا الاعتقاد هو الذى مهد للتيارات الاحتجاجية المتطرفة المعاصرة .

نعم إن المسلمين في محنة ويواجهون اضطهادا عظيما وإذلالا على يد الهيمنة الدولية وإسرائيل . إن أصحاب هذا الاتجاه اعتبروا أنفسهم مبعوثي العناية الإلهية؛ واستحلوا لأنفسهم العمل لاستلام السلطة بالقوة والانفراد بها واستحلوا لأنفسهم استخدام أساليب العنف العشوائي الذي يزهق الأرواح البريئة ويدمر الأملاك في سبيل تحقيق أهدافهم .

الإمرة لا تكون في شريعة الإسلام إلا عن طريق: **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** الآية (٣٨ – الشورى). والعمل من أجل الأهداف مهما عظمت لا يكون إلا بموجب : **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾** .. الآية (١٢٥ – النحل) . والقتال في الإسلام له ضوابطه وهي : الدفاع عن النفس وعن حرية الدعوة. **إن ربط الإسلام بالسلطة السياسية المستبدة، وربط العمل الإسلامي بأساليب العنف العشوائي جلب للإسلام ضررا كبيرا وأعطى أعداءه حجة قوية للنيل من ديباجته الوضاءة .**

إن علينا معشر أهل القبلة أن نرفض أية عملية استيلاء على السلطة بالقوة القائمة . وأن نرفض أية دولة تقوم على أساس بوليسي يقهر الناس . وأن نرفض أية صلة بين الدعوة للإسلام والعنف العشوائي . وأن نعتبر الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام ترهيبا بعيدا عن مقاصد الشريعة، كما نعتبر أية دولة بوليسية قاهرة خارجة على مقاصد الشريعة .

لقد صار نهج الذين ربطوا الإسلام بالاستبداد الغاشم وهم في السلطة، والذين انتهجوا العنف العشوائي كأسلوب لمعارضة النظم الشرعية، وإن

كانت ظنية، سيئة على الإسلام، ووسيلة للإساءة إليه ، ومخلب قط للتدخل الأجنبى، لذلك وجب علينا أن نتبرأ منهم وندين نهجهم.. هذا طبعا لا ينطبق على الذين يتخذون العنف أسلوبا لمقاومة الاحتلال الأجنبى، فهم إنما يردون على العدوان بمثله : **﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾** الآية : (١٩٣ - البقرة).

إن أسلوب الدعوة المشروع هو بالتى هى أحسن ، والتغيير المشروع هو بالتعبئة الشعبية وبالعمل المدنى الخدمى وبالترجيح الديمقراطى لأن أساليب العنف ضد النظم المؤسسة بشرعية ذات قبول واسع يؤدى لنتائج عكسية، **لاسيما العنف العشوائى والانقلابات العسكرية التى ما بنت قصرا إلا هدمت مصرا وما ادعت عمل إصلاح إلا أتت أضعاف أضعافه من الإخفاق .**

## سابعا : التحول السياسى :

إن الضغط الإصلاحى المنظم - على كل الأصعدة - من شأنه أن يحقق إصلاحا ديمقراطيا، وأن تدرج فى النظم القائمة، ودلائل هذا الإصلاح ظاهرة للعيان وكل من سار على الدرب وصل. إن الخريطة الإسلامية على المستوى الشعبى مكونة من :

١ - هيئات ومنظمات وتكوينات تقليدية لها دورها الدينى والثقافى والاجتماعى الإسلامى ولها سندها الشعبى العريض وإن كانت على درجة عالية من الضمور فى حركة تغيير المجتمع .

٢ – جماعات احتجاجية مندفعة انتهجت العنف العشوائى وصار لها درجة من التأييد فى مجتمعاتنا ذات الإحساس القوى بالظلم نتيجة الاضطهاد والهيمنة الأجنبية وتكوينها البشرى الذى يغلب عليه الشباب العاطل من العمل . هذه الجماعات جعلت دورها السياسى مقدسا وأسقطت على نفسها دور الأمة وقدست قيادتها وكفرت المجتمع الواسع .

٣ – مفكرين إسلاميين على درجة عالية من الوعى والاستنارة والالتزام الإسلامى والإحاطة بالفكر الإنسانى والتجارب الإنسانية المعاصرة ولديها مقدرة عالية على استصحاب النافع من فكر وأساليب العصر. لكن هؤلاء مع وضوح رؤيتهم لا يجدون سند الهيئات التقليدية الشعبى العريض ولا تأييد الشرائح المتحمسة الشعبية المندفعة فى تأييد حركات الاحتجاج .

٤ – أنصار الله ينتمون إلى دعوة المهدية فى السودان . إن مدارس المهدية فى الإسلام عشر مدارس : ثلاث شيعية هى الاثنى عشرية ، والشيعية ، والزيدية . وأربع سنية هى : صاحب آخر الزمان ، وإمام القرن ، ومدرسة فخر الدين الرازى القائلة بالشاهد لله بالحق ، ومدرسة ابن كثير القائلة باثنى عشر مهديين. ومدرستين صوفيتين : مدرسة ابن عربى والمدرسة القائلة بخاتم أقطاب الزمان ، ومدرسة فلسفية قائلة برئيس المدينة الفاضلة . المهدية فى السودان سنية ومقولتها تجعل المهدية وظيفية وهى وظيفة إحياء الكتاب والسنة بصورة ذات خصوصية تجيز لها تعليق المذاهب وإبطال التفرق بين المسلمين عودة للكتاب والسنة .

هذا موقفها النظرى. لكن موقفها من الخريطة الإسلامية الشعبية هو أنها جمعت ما تفرق بين التكوينات الإسلامية فهى ذات موروث شعبى تقليدى عريض، وهى ذات طلائع فدائية متحمسة، وهى ذات كوادر فكرية مثقفة لذلك يرجى أن يكون لها عطاء إسلام فى داخل السودان وفيما يتجاوز السودان داعية لنهج إسلامى ملتزم ومستنير بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة .

إننا فى هيئة شئون الأنصار المنبر التنظيمى لهذه الدعوة نخاطب أهل القبلة أن حى على الفلاح تلبية لنداء الإسلام نداء المهتدين راجين أن يتخذ كافة أهل القبلة على نحو ما اقترحنا .

وفقنا الله لمرضاته . آمين .

﴿قل هذا سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

**الصادق المهدى**

**صاحب العهد مع أنصار الله**

# الفهرس

# اقرأ

صدر عام ١٩٩٩

■ كيمياء السعادة
حسين أمين
■ العقل في الإسلام
المستشار محمد سعيد العشماوى
■ الاستنساخ
د. منير الجنزورى
■ نقد العقل العربى
طارق حجى
■ التنوير الزائف
د. جلال أمين
■ إدارة المعرفة
د. محمد رؤوف حامد
■ المسلمون والنظام العالمى الجديد
د. عبد الله الأشعل
■ إسلامية المعرفة
د. محمد عمارة
■ عندما تحب المرأة
حلمى مراد

■ العالم العربى عند مفترق الطرق
د. محمد نعمان جلال
■ الجمعيات السرية
على أدهم
■ قراءة فى كتابنا الوراثى
د. أحمد مستجير
■ قضايا علمية
د. مصطفى إبراهيم فهمى
■ إدمان المخدرات
د. ناجى محمد هلال
■ الوطنية فى مواجهة العولمة
د. محمد رؤوف حامد
■ مستقبل العلم
د. محمد زكى عويس
■ الحب فى عصر العولمة
د. منى حلمى

## إشترك في سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًا
- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

او بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

| رقم الإيداع | ٢٠٠٠/١٧١١ | |
| --- | --- | --- |
| الترقيم الدولى | 977-02-5961-6 | ISBN |

١/٩٩/١٠٧

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )

قرش جنيه
١,٠٠

لماذا يكره الناس بعضهم البعض ؟
وكيف يمكن أن يتحول الصراع بين الحضارات إلى حوار بين الحضارات ؟
الإجابة يطرحها هذا الكتاب، وتتلخص في كلمات بسيطة « لابد من قبول الآخر». بمعنى.. « قبول الرأى الآخر».

ولأول مرة تكسر « اقرأ » الشكل النمطى للكتاب.. فنحن الآن أمام قضية فى كتاب أو ثلاث رؤى مختلفة لقضية واحدة أبطالها ثلاثة فرسان، فالقضية يطرحها دكتور/ ميلاد حنا ويحاوره فيها المفكر العربى الصادق المهدى رئيس وزراء السودان السابق، والمثقف الإيرانى محمد صادق الحسينى.

كتاب غير مسبوق شكلا وموضوعا .. يطرح قضية بالغة الأهمية والخطورة.



دار المعارف

٤٠٧٠٨١/٠١

